اعترافات
امـــــرأة

الناشر

www.darelnokhba.com

رئيس مجلس الإدارة

أسامة إبراهيم

المدير التنفيذي

سماح الجمال

المدير الفني

أحمد جابر

تصميم الغلاف

مصطفى الدناصورى

التصميم الداخلى

وليد محمد

دار النخبة

للطباعة والنشر والتوزيع

٣٣ شارع السنترال - المجاورة الأولى - الحي الأول- مدينة الشيخ زايد - الجيزة - مصر

تليفون: ٣٨٥١١٩٦٩ - ٠٠٢٠٢

٠٠٢ -٠١٢٨٨٦٨٨٨٧٥

E-mail: alnokhoba@gmail.com

الطبعة الأولى

1438 هـ - 2016 م

جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية:

2016 - 26054

ISBN: 978 - 977 - 6580 - 22 - 0

عائشة بنّور

رواية
اعترافات امرأة...

فائزة بجائزة «الاستحقاق الأدبي»
ناجي نعمان الأدبية ٢٠٠٧ بلبنان.

٢٠١٧

الإهداء...

إلى العزيزتين سناء ونور ....
إلى كل امرأة تأبى أن تكون غير امرأة..

إلى كل رجل يرى فى المرأة إنسانا..

عائشة

تقديم:

تشظى الذات ولعبة الضمائر فى رواية عائشة بنور (بنت المعمورة) «اعترافات امرأة..».

قال الشاعر أبو البقاء الرندي:

لكل شيء إذا ما تم نقصان

فلا يغرّ بطيب العيش إنسان

هى الأمور كما شاهدتها دول

من سرّه زمن ساءته أزمان

وينتضى كلّ سيف للفناء ولو

كان ابن ذى يزن والغمد غمدان

أين الملوك ذووا التيجان من يمن

وأين منهم أكاليل وتيجان

وأين ما شاده شدَّاد فى إرم

وأين عاد وشداد و قحطان

بهذه الأبيات الرائعة الموحية استهلّت عائشة بنت المعمورة روايتها الجميلة»اعترافات امرأة» والتى كانت بمثابة نبراس أوكنار مضيء يتكئ عليه المتلقى وهو يخوض مغامرة قراءة هذا النص المبهر وكلما احتار المتلقى فى تفسير كلمة أو حدث أو جملة أو مشهد عبر صفحات الرواية جمعاء يعود إلى هذه الأبيات التى أرى أنها كفيلة بأن تحل أى مشكل أو لغز إن وجد هذا أو ذاك وهما نادرا ما يصادفانا فى هذا

النص المميز- وبذلك استطاعت عائشة بذكاء فطرى وإبداعى وحس روائى شفيف أن تسرع لنجدة المتلقى من تيهه إن تاه فى مسيرة قراءته للنص لكى تأخذ بيده حتى يهتدى إلى ما تريد أن تقوله أو تتركه فى أحيان كثيرة لكى يعمل عقله فى استنتاج مدلولات من وراء أسطرها تزيد النص طزاجة وطلاوة ولا تبتعد كثيرا عما تبغى أن تقوله وما تريده أن يصل إلى المتلقى ساعدها فى ذلك كثيراً قدرتها الفائقة على استخدام ضمائر القص بشكل يعكس رؤيتها الفاحصة للذات الإنسانية فى جميع تجلياتها وخاصة فى مراحل الضعف الإنسانى المرئى والخفى فهى بحنكة رائعة تعرف متى تستخدم ضمير الغائب عندما ترصد أحداثاً خارجية وواقعية وتقع فى محيط الذات المادى والاجتماعى ولكن عندما تتحدث عن ما يعتمل داخل الذات من فوران وغليان نتيجة أخطاء بشرية مزرية تصل إلى حد الخطيئة فهى تلجأ إلى ضمير المتكلم للولوج أكثر داخل الذات، هذا الداخل المعتم والغامض والذى لا يصلح مع رصده فى الكتابة سوى ضمير المتكلم الذى يساعد البطل - الراوى على سبر أغوار ذاته والعمل على استبطان هذه الذات للكف عن هويتها ومحنتها فى نفس الوقت وهذه اللعبة التى أتقنتها عائشة إلى حد الإجادة فى روايتها واتكأت عليها ببراعة تحسد عليها حقا فى رصد انفعالات أبطال روايتها ومحاولة الوصول إلى أنقى صورة للذات استخدمتها عائشة بما يضيف لنص جماليات ما كانت توجد فى مثل هذا النص لولا هذه البراعة فى الرصد وهذه القدرة على توظيف الضمائر فى المواقف المختلفة كما أضيف أيضا براعة أخرى تجلت فى

هذا النص الروائى الجميل وهو قدرة عائشة على التحليل السيكولوجى والذى قد يرى آخر أنه من مميزات كتابة الرواية الحديثة أو المعاصرة إلا أن أهم ما يميز عائشة ويجعلها تختلف عن باقى الروائيين التى تعاصرهم أو يعاصروها هو الوصول إلى أعمق نقطة من الذات والتعامل معها بشكل أفقى مستعرض وليس كما هو شائع فى الروايات الجديدة التعامل معها بشكل رأسى عمودى من منطلق ما يطلق عليه الإسقاط الفنى على الواقع.

فهنيئاً لنا نحن أولاً قراء إبداعات عائشة بنت المعمورة على هذه الاكتشافات المدهشة فى رصد سبر أغوار الذات الإنسانية أو على هذه القدرة الجميلة على اكتشاف مناطق وأدوات روائية أتصور أنها تخص عائشة فقط دون غيرها من الروائيين الآخرين سواء-وإن كنت ضد هذا التصنيف المجحف-سواء كانوا هؤلاء الروائيين ذكوراً أو إناثاً فنحن بصدد تجربة روائية تستحق حقاً التأمل والرصد الدقيق من المشتغلين الأكاديميين بالنقد الأدبى والروائى منه على وجه التحديد لتحقيق أكبر استفادة ممكنة من هذه التجربة الثرية حقاً.

وأخيراً هنيئاً لعائشة نفسها هذا النص الروائى المدهش الذى يضيف لتجربتها المزيد، والمزيد المزيد ...

بقلم: الأديب والروائى المصري
موسى نجيب موسى
- جامعة الفيوم -

لكل شيء إذا ما تم نقصان
فلا يغرّ بطيب العيش إنسان
هى الأمور كما شاهدتها دول
من سرّه زمن ساءته أزمان
وينتضى كلّ سيف للفناء ولو
كان ابن ذى يزن والغمد غمدان
أين الملوك ذووا التيجان من يمن
وأين منهم أكاليل وتيجان
وأين ما شاده شدَّاد فى إرم
وأين عاد وشداد و قحطان

أبو البقاء الرندى

وجع طفولى

رمضـان...

شهـر رمضان وحده يحدد نقطة تمركزى ويجبرنى على الانصياع.. يجعلنى فى ترقب الساعة لحظة المغيب.. وحده يحرّرنى من قيود شهواتى ونزواتى وملذّاتي.. وحده يحدد نوعية ألوانى الضبابية التى اكتشفت صفاءهـا فى الصحراء وبين الرمال الذهبية..

رمضان وحده يخرج ذاك الطفل المشاكس.. المستهتر الذى يسكنني..

طفل يلعب.. يتمرد على الخصوصية والقوانين ويعبث بالكؤوس الملونة بالشفاه...

طفل أنانى يتمتع بالأشياء إن ملكها ويبكى إن ضيّعها!

طفل يتمرد على الانصياع والصمت والقهر..

طفل يحاول أن ينسجم مع العالم الخارجى الذى وجد فيه نفسه وحيدا غارقا فى أحلامه ومشاعره.. منطويا على حالات وجدانية عنيفة من الحب اتجاه شخصيات مرت فى تكوين شخصيته الطفولية كالجدتين خيرة وزينب..

طفل بشخصية انطوائية حسية غير ثابتة تتغير بتغير الظروف المختلفة، تتجاذبه الأفكار ساعة أن رأى جسد جدته خيرة ممدّدا لا يحرّك ساكنا.. لقد ماتت.

طفل صغير يحاول أن يستوعب لغة الموت، لغة استطاعت أن تأخذ منه تلك العجوز التى كان يلعب فوق ظهرها المحدودب ويتمتع بجولته معها بين الحقول وبين قطيع الغنم والماعز وبين ألوان الدجاج للبحث عن بيض مخبأ تحت القش وبين وبين و.. و..

ووحده رمضان الذى كان يشعرنى بالزمن و بالانقياد عن طواعية.. طواعية لا أدرك سرها!

كنت أنتعل التناقض بالطول والعرض.. نسخة مزورة لحقيقتى التى كانت تعانى انفصاما حادا..

انفصام يطاردنى مرة ويصافحنى مرة أخرى...

رائحة انتماء تتحرك بداخلى تأخذنى إلى حيث الشوارع المزدحمة بالأهالى وهم يجوبون المحلات ويبتاعون حاجاتهم.

كنت أشم رائحة الأكل الطيب ورائحة البخور تعبق المكان ورائحة الحب ورائحة التقوى.. ورائحة الطيبة ورائحة ورائحة.. و.. و..

رائحة تعيد إليّ الثقة بنفسى المهزوزة وتنهى حالة التناقض التى كانت وهما من أوهام الكؤوس الملونة...

بداياتي..

بداياتى كانت شرعية مقنعة.. مجموعة من الأشكال لاتجوز مناقشتها، ولا يجوز الاعتراض على أى لون من ألوانها المختارة.

ربطات العنق...

ربطات العنق الملونة أوهمتنى بكبرياء مصطنع احترفت التظاهر به أمام أصدقائى فى المكتب وحتى أمام رجاء التى أسقطّتنى ابتسامتها

فى قاع الجب كورقة خريف ذابلة منكسرة وهى ترحل وإلى الأبد.

بداياتي...

بداياتى كؤوس ملونة.. كؤوس تشبه كؤوس الخمرة لصاحبها الذى كنت أردّد شعره فى سرى كلما ضاق صدرى وحمّلنى صديقى "توفيق" اللوم والعتاب:

دع عنك لومى فإن اللوم إغراء

وداونى بالتى كانت هى الداء

لا شيء أكثر إيلاماً من تلك الأفكار التى تأتى وتهرب ثم تتلاشى وقد تتدافع بأفكار أخرى فيلفها النسيان وسرعان ما تعود لحظة السكون..

لقد قرأ كل الألوان وصنع من نفسه مرآة لشخصه.. وما كانت المرايا إلاّ بداية للاعتراف..اعتراف الألم والوجع..

تعود بلا لون وقد تعود بكل الألوان الفاقعة والباهتة..

الـرؤيـــا

رأيتها فى منامى بلباس أبيض.. عروس تحمل فى يدها مجموعة من الألوان والأقلام.. مزجت الألوان أمام ناظرى وهى تقول:

-تعال نلعب لعبة الألوان.. هكذا نمزج الألوان..

الأحمر مع الأصفر.. برتقالى والأزرق مع الأصفر.. أخضر والأحمر مع الأزرق.. كحلي،الأحمر مع الأبيض.. وردى والأزرق مع الأبيض.. سماوى والأسود مع الأبيض.. رصاصي..

ثم رفعت الريشة ومسحت بها على أنفى وهى تضحك قائلة:

-أليس جميلا مزج الألوان ببعضها البعض.. إنها متعة ولذة.. هكذا الحب بكل الألوان وهكذا الحياة تعطينا لونا غير الذى نحب؟

-إنها لذة الألوان..

وقد ضاعف من يأسه وكآبته صفير رياح هوجاء فى الخارج تلعب بالنوافذ.. فحرك أزيزها توترا بداخله قائلا:

-سأنفجر.. سأنفجر..

بل سينفجر غضب السماء فى الخارج وجو الغرفة المشحون بالرطوبة يخنقني...

أطلّ من النافذة فبدّت له لعبة الألوان فارغة وأزقة الشارع فارغة.. والمدينة تسبح فى اللون البني.. تغرق فى الأوحال وكل ما تجرفه معها

من نفايات وأشجار وأسلاك كهربائية وقطط وفئران تسبح مع التيار.. ورجل شبه عارى متعلق بحبل مشدود إلى جذع شجرة مكسورة، وسيدة تستند إلى سور الجسر بعدما هربت من منزلها على حافة البحر.

الكل كان يسبح.. لاشيء كان ضد التيار.. حتى الأجساد لم تقو على السباحة ضد التيار.. الطوفان وحده كان السيد.

ومضت سبعة أيام.. خفت وطأة الزوابع فى شدّتها بعدما عصفت بأحلامى فانتحبت سيدة بالجوار على سقوط ابنها من أعالى البناية المتصدعة، ناحت بصوتها الشجى حتى بلغ خوفى وذعرى من عباب الطوفان القادم نحو المدينة!

تطلّعت إلى الجو وإلى سقف الغرفة الضيقة فوجدت السكون يخيم على المكان، وقد أضاءت المصابيح وشعت أنوارها الأماكن البعيدة الحالكة بالظلمة.. وازداد عجبى لهذا الصمت وأدركت أنها الطبيعة فعلت فعلتها الليلة...

إنها ليلة الألوان!

انهمرت الدموع على وجهى لا تدع آثار الوجل.. بقيت جاثما أمام النافذة ورأيت الناس يهرعون ويصرخون ويبكون، يفترشون الأرض خشية أن تتهاوى البنايات فوقهم بعدما تزحزحت من مكانها..

يهرع الملوك نحو الأديم وقد نزعوا تيجانهم بعد أن عاثوا فى الأرض فسادا...

أجل رأيتهم بالأمس عظماء.. يلبسون التيجان ويعلقون النجوم..

ويلبسون الفاخر ويأكلون الشهد.

ورأيتهم يسرقون الدمع من العيون والفرح من القلوب واللقمة من الأفواه الجائعة..

ورأيت زبانيتهم تنسلخ من أثوابها ومن سيّاطها ومن جبروتها وسخطها.. و..و..

واليوم تلحق بهم اللعنة.. لعنة السماء..

سجدت حمدا لله وجلست أبكي.. أبكى لأننى لم أكن ملكا تنزع الطبيعة تاجه مرغما!!

لقد رأى صديقى فى منامه رؤيا!

لقد رأى صديقى "رامى فتحي" فيما رأى رؤيا تنذر بالشر.

فقال لي:

-اللعنة ؟

قلت:

-ماذا تعنى ؟

قال:

- لقد حلت اللعنة.. فلن نموت ميتة السلام ؟

وفاض الحزن بصديقى رامى فتحى واستجابت نفسه لرغبة الاعتراف فقال بعدما لعبت المدامة برأسه:

- خرجت من السهرة ثملا.. بعدما لاعبت وراقصت.. وشممت العطور وضربت الأنوار بعقلى فزدت الكأس كأسين حتى أفرغت

الزجاجة الخضراء..أجل.. لقد كان لونها أخضر..

وبنبرة مستفزة هادئة قلت:

- وهل ميّزت الألوان بعد إفراغ الزجاجة؟

فقال بقسوة محملا ذاته:

- لقد خسرت الدار.. الدار.. خسرت ألوان كل الدار..

قالها بنبرة اشتياق وأهمل مواصلة التعليق مستسلما للذة الاعتراف.

تجهم وجهه وراح يعيد أمامه الظروف القاسية التى اضطرته لذلك.

قلت له وأنا أتفرس ملامح وجهه بقوة وكأننى أراها لأول مرة:

-ما فات قد فات.. ولا مبرر لفعلتك.. وربَّت على كتفه مخفّفا من شدة ألمه.

رمقنى بنظرة خاطفة على ضوء مصباح قريب منه وكأنه شعر بإحساسى اتجاهه وهو يقول:

-أنتَ.. أنتَ لا ترغب فى حديثى عن الخطيئة..

قلت:

-كلنا خطاؤون وخير.. !!

قاطعنى بعنف.. ثم رد بانكسار مرير:

-وهل رحمَّتنى المتاعب لأبتعد عنها!

تغيّرت سحنة صديقى "رامى فتحي"وقال بلهجة الخوف:

-والرؤيا؟

قلت له بعدما أفزعنى خوفه:

- دعنى أقول لك إن الموت هى السعادة الأبدية، وما الرؤيا التى رأيتها إلاّ روح من أرواح الجنة زارتك وأنت تلبس لباس الخطيئة!

رمقه بنظرة استجداء وقال لنفسه وهو يستلقى على الفراش بعد أن خرج "توفيق" من عنده وقد هام على وجهه وجال ببصره المكان من حوله ثم انهمك فى اللعب مع روحه المفزوعة.. ونسى كل شيء حتى الخطيئة؟

وفى حيوية فاترة عايش اللّذة واستمتع على غير عادته بتلك الرؤيا التى زارته فى خطيئته..

وتخيل الكواكب والنجوم وغزو الفضاء برغبة طفل يسعده التوهج واللمس..

وفى جو بارد يعانى الوحشة والملل والجزع.. تلوح على وجهه مسحة الكآبة فأبدى أسفه على تألمه وتنهد قائلا:

- ثمة أمل!

دلّت تقلصات وجهه على منتهى السعادة ومنتهى القرف من نفسه، وأن التعلق بالحياة حماقة و تهاوى فى فتور عميق وأشياء كثيرة ذابت فى مخيلته وأعاد الماضى يعتذر منه..

حرك فى أعماقه المغلقة خبايا صمت طويل..وما اعترافه إلاّ أنه شخص منقسم الشخصية قد زاد من قلقه، ووجد فى اعترافه ما يخفف من مشاعره المتوترة.

ولبث فى الظلام محتجا على ضياع العمر بعدما تذكر الجرح الذى حفرَّته فى قلبه.. ولكنه رحل.. رحل وتركها.

ازداد تنغيصا وما لبث أن أغرَقه ذلك فى عملية الجذب والشد وفى ازدواج شخصيته قائلا:

- عدم التكيف مع الواقع والضغط النفسى الرهيب يجعلنى أرفض الحياة..أرفضها باستهزائي..أرفضها بحماقاتي.. وأنقاد إليها بزجاجاتى وكؤوسى وتهوري..

أسقط فى فراغاتها التى توقعنى كل مرة فى انزلاقات خطيرة أنا فى غنى عنها.. تجرنى نحو اللارجوع فتحملنى ما لا طاقة لى به..بل أحمل نفسى ما لا أطيق !

كنت أفتقد أحيانا إلى القدرة على التمييز،فتدهور سلوكى الشخصى واضطراباتى فى التفكير وربما حتى اعتقاداتى الخاطئة لبعض الأمور.. جعلتنى أعاني.. أعانى الكثير..

ثم نزل من فراشه باتجاه النافذة وهو يردّد فى سره:

- هل كنت أعانى من برودة المشاعر اتجاهها؟

- وهل كان لتقلب مزاجى دور فى ذلك؟

فى البداية حاولت الانسحاب من المكتب للحزب ثم من أسرتي، فانعزلت عن أمى وأبى يوما بعد يوم إلى أن هجرت القرية بحجة الحياة الكريمة فى المدينة ثم من المجتمع، وحتى عدم قدرتى على العمل والاتصال مع الآخر.

تنتابنى نوبات عنف تثير فى نفسى القلق لدرجة أقلق من أنها تؤثر على حياتى الطبيعية..

انتابتنى هذه الحالة عدة مرات فى الآونة الأخيرة وسيطرت على كل تفكيرى وسلوكي..

فالقلق سبب لى الكثير من العصبية وعدم الإحساس بالراحة، فرعشة اليدين وبرودة الأطراف أدت بى إلى حالات من الكآبة وحالات من الابتهاج وحالات لا أجد لها تفسيراً.

كنت أحاول التخلص من الضغوط والاكتئاب بحمام الزيوت العطرية، إذ أضع قطرات من زيت الصنوبر فى الماء والبقاء فيه لفترة، ثم أتخيل نفسى داخل بحيرة تقع فى أعالى الجبال.. مكان هادئ ومناظر خلابة.. أسمع صوت العصافير وهى ترقص والنسيم يداعب أشجار الصفصاف من حولي..

وروائح عطرية ترسلها الطبيعة وشابات من حولى يضعن زهورا صفراء على شعورهن ويحرقن البخور أمام ناظرى ككهنة بعل يحرقون البخور لبعل والشمس والقمر..

أو كما كان يفعل الرومان فلكل آلهة بخور خاص بها، إله الشمس الزعفران و إله الحرب الصبار... إذ كنت أرى فى أريج الأزهار طبائع الروح التى لا تقبل إلاّ بما هو محسوس والبحث عن التوازن أكثر بداخلي.

كان يهمنى أن أجد رفيقا فى وحدتى وأن أجد لأسئلتى الإجابة وبكل لون ورائحة...

أن تقنعنى تلك الألوان التى علّمتنى إياها بأننى رجل يمكنه أن ينجب الأطفال، ورائحة أبوة أتلذذ نشوة بإحساسها..

وأمضى وقتا يثرثر مع نفسه.. محتجا أحيانا ومتفهما أحيانا أخرى.. متألما.. بائسا.. سعيدا.. مؤكدا فى نفسه على

أن مؤسسة الزواج أصبحت فارغة من الحب.. من المودة والرحمة..

أصبحت مجرد أجساد تلتقى لحظة المغيب.. مجرد مؤسسة مطالب وسباق مع الزمن.. مجرد.. مجرد..

-ماذا لو كنت امرأة؟

-امرأة لا تنجب الأطفال؟

-هل أرضى بقسمتى معها؟

-هل أتزوج بأخرى لتنجب لى البنين والبنات..

-أن تملأ أصواتهم صمت هذه الغرفة الضيقة..

-هل أطلقها؟

-هل أرحم اشتياقها للأمومة؟

-هل.. هل..

أتعبتنى أسئلتى التى فرضت نفسها على تفكيرى بإلحاح وقلت وأنا من يتحملنى الآن!

-هل ترضى أن تبقى مع رجل عاجز عن الإنجاب، وترحم أبوتى وتحرم نفسها الأمومة؟

- ماذا لو قبلت طلبها بتبنى طفل يملأ وحشتنا..

- هل أصارحه بحقيقته وحقيقتى حينما يكبر و ينادى بابا.. بابا..

- هل أضيّع حلم الأبوة عنده وأخبره أننى لن ولن أصبح أباً؟

كانت "رجاء "من أسرة عريقة وغنية.. أسرة سى مخلوف ولد عبد القادر ذات سمعة طيبة وكريمة.. توارثت الشرف والجود والهيبة أبا عن جد..حتى لون البشرة لعبت الجينات الوراثية على استمراره عبر أجيالهم .

سى مخلوف ولد عبد القادر رجل تجاوز الستين من العمر يتميز بطبع رقيق، سريع الغضب ورجل يعرف الكثير عن الثقافة الشعبية لأهالى المنطقة.. ينفث سرعة غضبه فى قول المثل الذى يتخذه سيفا حادا يوقف الشخص عند حده، لكنه طيب القلب، نقى الروح، شجاع..

كانت رجاء ابنته.. ابنة أحد أكبر الشركات فى النفط والغاز بالجنوب الجزائري.

شابة جميلة المظهر والقوام..ذات شعر أسود مسترسل.. وعينين سوداوين.. تعلووجهها حمرة الحياء البدوي.. بشوشة الروح.. ذكية.. تعتز بنفسها.. كلها ثقة وإرادة .

كنت أقضى معظم أوقات العطلة الصيفية مع العمال عبر الصحارى الشاسعة فى التنقيب عن البترول والتى تدخل فى إطار عملي، بعدما تركت القرية النائمة نوم أهل الكهف باتجاه المدينة وصخبها حينما تعرفت عليها.

متعة الاكتشاف جعلتنى أبحث عن وردة الصحراء وعن تلك

الحيَّات التى تنساب بين الرمال الحارة دون أن نشعر بها.. عن أثار تسكن الأحجار وعن سلسلة الطاسيلى بالقرب من الأهقار، نعانق رمالها الذهبية الدافئة، ولفح شمسها الحارقة وهى تصب نيرانها الملتهبة خلال النهار، وتحت الخيم التى ننصبها نستلذ بطعم اللحم المشوى على الجمر وخبز "الملّة" المطهى تحت الرمل الساخن، نختم الجلسة الحميمية رفقة الأحباب بكؤوس الشاى المركز، المطبوخ على الجمر المتوهج لفترة من الزمن حتى يأخذ لونه البنى الغامق..

كانت صورة الصحراء تزداد جمالا وسحرا آخر،جمال يصنعه الطوارق برقصاتهم وأغانيهم التقليدية بالعزف على التندى والأمزاد.. وفرحة أخرى يصنعها سباق الجمال ورقصة العرس للرجال الملثمين بلباس المنطقة تشكلها مبارزة فلكلورية بالسيف.

كانت الصحراء قطعة جمالية ومغامرة الاكتشاف ذكرّتنى بصورة الرحالة المغامرة "ايزابيلا ايبرهارد" المولعة بالترحال بين كثبانها وواحاتها..

امرأة بحثت عن الطمأنينة بين ظلالها وأهلها فهدأت نفسها حتى ماتت غريقة كثبانها المائية.

كل لوحة من الألوان صوت وصورة.. كان لضوء الشمس لون وللظلال لون وللكثبان لون آخر وسحر لطالما فتن "ألبير كامو" أو"أندريه جيد" لواحات بسكرة أو"يوجين فرومنتان" القائل: "إنه مغمور بالألوان"حتى أنه سكن قصرا بناحية مصطفى باشا.

كانت الأساطير والأعراس والعادات والألغاز جزء لا يتجزأ من ذرات رمالها الذهبية ووجه من وجوه شخصيات ناصر الدين (إيتيان ديني) التى كانت تزين لوحاته.

وتلك السلاسل الصخرية التى تبدو جداريات لنقوش حيوانات عاشت فى المنطقة.. طيور وزواحف وحشرات كانت لحيوانات نادرة.. نقوش صخرية توحى بالصراع الإنسانى منذ الأزل والتى تشهد تعاقب الحضارات على المنطقة.

لكن اليوم لاشيء بقي.. كل شيء ضاع وضاعت معه المتعة وحب الاكتشاف وما بقى إلاّ تلك السلاسل الصخرية والنقوش تشهد على مروري.

-هى الحقيقة التى اكتشفتُها.. فرحلت!

كنت أتسلى بالفتيات فى شوارع المدينة ولم أنعم بالاستقرار إلا عندما تصدقنى واحدة منهن..فيزداد الأمر عندى دعابة أو مجرد انفعال عابر.

أمتهن جمالهن كما تمتهن الحرية والإنسانية اليوم ؟

حياة آخر الليل فيها لذة خاصة وحياة النهار لذة من نوع العتاب والندم.. كلها ممزوجة بالكذب والخيانة والهزيمة!

- ما أسهل التحدث عن الخطيئة؟

- ما أصعب الاعتراف؟

كان لأفلام الرعب وقع خاص فى نفسى رغم سلبية شخصيتي..

فكان الخوف بالنسبة لى خوفا مستحبا ثم خوف رد الفعل إلى أن أصبح خوفا مرضيا..

كنت أجد فى نفسى رعباً داخلياً.. خوف من المجهول، وما نوبات الذعر تلك إلاّ لخوفى الشديد من المواجهة ومن الماضى والمستقبل..

كانت كتلك الزوابع التى استسلم لها حتى الملوك !

والحقيقة أنه لا قيمة للإنسان اليوم!

أقنعـة مـمزقة

قالت فى نفسهـا:

- الفارق بسيط بين اللونين....

اختـارت اللـون المحبب إلى نفسها.. خليط صُدَفَوى من الألوان والأشكال.. لبست الفستان الفضفـاض بربطة على الخصر.. ازدادت شهوتها للجمـال وضحكت ضحكة دوى صداها الغرفة..

-إنه معجب بشخصيتى وبأناقتى و بتفكيرى وبأحلامي.

-إنه معجب.

وأشرق وجهها بفرحة ساذجة وتلألأت الألـوان فى مخيلتها من مصابيح المرقص، ومضت تراقصه وهو يشد على خاصرتها بذراعيه يستردان معا لحظات معبقة بسحـر الليل وهدوئه..

قالت وأساريرها ترقص طربا:

-إنها نشوة عجيبة لازمتني، وانبعثت فى نفسـى أشواق غامضة نحوه..

-أتراه الحب؟

-أتراه وداع للحب؟

-أم أنـه عرض من أعراض اللحظة الضائعة تجارى مكامني!!

-أم أنه تحدى الخوف من مجتمع يرفض الحب ويحاربه بالقتل أو

النفى أو الانتحار..

منذ نعومة أظافرى وأنا أمتهن العشق الطفولى بداخلي.. أمتهن الحب كلعبة أخفيها أحيانا وأحيانا أخرى أجمّلها بأحلى الملابس التى أخيطها لها..

كنت أحس الحب فى قلبى و لكل الأشياء، ويتحول إلى كومة رماد إذا ما لمحته الأبصار؟

فعوالمى لم تكن برارى مكشوفة.. لقد استُئصلت أوردة الرفض والمعارضة منذ أن ظهرت متعة الرغبة فى التصادم والتمرد على تلك الطقوس التى سحقت كبريائى وسحقتنى كأنثى..؟

أنثى تعشق الأنوثة حد النخاع!

كان ثمة تناقض كبير بين الحب والخوف والتمرد فظلت أوتاد البداوة محفورة فى أعماقى تستحى الاقتراب من مملكة الحب، وتختلس الحب اختلاسا من الصور والأغانى والشجر والطير ولون السماء وحتى من المطر؟

كنت أرى الحب يسرق من ثقوب الأبواب والنوافذ نهارا ويمرر فى الرسائل خفية ويدخل البيوت خلسة فى الليل لأنه كان مقهورا و محظورا..

وقتها شعرت أنه ينفصل عن جاذبيته ويتخطى كل الخطوط المرسومة له.. ويتمرد على تلك القيود التى طوقته.

كان لونا غير اللون الذى أحببته فى طفولتى وفى أشيائى ولعبي..

كان حبّا مقنّعا يتجاوزنى أنا الطفلة المدللة التى تبحث باستمرار عن وجهها وصوتها بين الوجوه المقنعة، وعن الشكل وما وراء الشكل وعن اللون وما وراء اللون، ومن ثمة شاركنى الشكل واللون حجرتى وسريرى وأناملى وأحلامى وملابسى وتسريحة شعرى ولوحاتي، فكنت أمارس على نفسى رقابة اللون والشكل والوجع الذى أصبح لغة أخرى تسيطر على كل تصرفاتي...

البوح...

كان الحب يمارس البوح على أجساد تتصارع تحت أقنعة الشهوة والكبت وارتكاب حماقة الوهم وتصديقه..

كان الحب المقنع وحشا يفترس ضحاياه ليلا ويصلبها نهارا، وأكبر جريمة يرتكبها عدم الاعتراف بضحيته وبولادة طفل غير شرعى تحت جنح الظلام.

اغتصاب..

حب يغتصب البراءة فى عمر الزهور بعدما تلجأ إليه لفك قيودها، فتقع رهينة الأغلال التى تكبلها وإلى الأبد.. براءة.. ضحية.. خطيئة..

وأصبح الانهزام والاحتراق وجها آخر للخيانة يحطم أكثر المرافئ الآمنة.....

مخاوف...

رمشت عيناها المستديرتان وتجهم وجهها حزناً ورغبة ملحة تسائل رغباتها الدفينة.. ثم ابتسمت ابتسامة غامضة وتذكرت أنها مجرد مخاوف لا جدوى منها.

وراحت تتقلب على السرير فانحسر طرف فستانها الوردى عن نصفها.. سوَّته ثم استدارت على جنبها بجنون الرغبة فى رؤياه.

تأملت نفسها فى المرآة ثم استدارت يمينا و يسارا ومسحت عن وجهها بعض الألوان الهاربة من مكانها بعدما نسيَّت أن تخفى تلك الخيوط الرفيعة تحت الجفون..

ابتسمت راضية عن نفسها ثم خرجت...

همسات ملونـة

وقفت إلى جانبه جامدة القسمات حيّته بابتسامة الفرح وهى تحاول أن تعتذر عن التأخر متلعثمة تبحث عن الكلمات، لكنها هربت منها بعدما رأته.

وبالجوار وعلى بعد أمتار امرأة متقدمة فى العمر تجلس على كرسى خشبى وإلى جانبها رجل أبيض الشعر.. يتناقشان فى مشكلة ما، لأن صوتهما كان يصل إلى مسمعيهما بقوة تلفت النظر نحوهما.

لاحظ تلعثمها فقاطعها واضعا الوردة الحمراء على شفتيها.. فصمتت عن الكلام.

جلسا بالقرب من شجرة النخيل الباسقة على مقعد قريب.. نظر إليها.. وخطفت النظرة من عينيه فى استحياء ودفنت وجهها بين راحتى يديها.

نبض قلبه بشوق غريب ولهفة لاحتضانها، أن يلصق خده بخدها وأصابعه تتخلل شعرها الذهبى الطويل، أن يمتص رحيق الأحلام منها.. أن.. أن..

أن يأخذها على حصان أبيض كما يفعل الأمراء ويجرى بها فى المروج و الوهاد حتى يتهاوى المغيب لحظة السكون.

أن يبتسم شذاها الطيب فلا يستفيق منه إلاّ على همساتها.

أحسّت بغفلته وشروده، فأبعدت يده عن وجهها دون أن يشعر بذلك قائلة:

- أين أخذك الحب منى هذه المـرة؟

ردّ بعيـون ممتلئة بالدموع:

- حبا فى الحب!

لأننى كنت أريد أن أنسى الماضى والأيام الأليمة، أن يصبح الماضى كأوراق الخريف وأنسى معه الإجابة العالقة التى كانت تختفى و تستفزنى بأننى رجل ناقص؟

كنت أريد أن أرتكب الحماقات وأن أطير فوق السحاب وأن أثور كالبحر فينتفض من على الشاطئ الجبناء وضعاف النفس مثلي، أو أبتلعهم فى جوفى وأرمى بزبدى على الرمل الذهبى ليسوى المكان كما تعوّدت موجاتى الغاضبة أن تصل إلى أبعد نهاية..لتصل إلى آخر الأقدام وهى تهرب منها أو ترتمى فيها، أن أحطم الصور المألوفة فى مخيلتي.. أن يمتصنى قرص الشمس نحو المجهول.. ويدفعنى بقوة نحو ألوان الطيف!

كنت كطفل مشاكس يسأل كثيرا و يتعب منْ حوله بالإلحاح:

-أين تذهب الشمس؟

-أين ينتهى البحر؟

-ومن أين تأتى ألوان الطيف؟

طالما نصحنى معلمى بالمثابرة والبحث.. سرّنى ذلك فالتفوق غير

متوقع من طفل مثلي!

بل متوقع.. فالعلماء أقوياء بالحجة وبالحقائق وما المال إلاّ مفسدة للوقت .؟ هكذا كنت أقول لنفسي.

توهمت يوما أننى سأستمر فى البحث فلقد أرهقنى الصمت بعدما كنت أمتلك الحقائق.. حقائق الألوهية والحضارات القديمة..

حقيقة مغيب الشمس ونهاية البحر وتكوين الطيف والمطر وثوران البركان والحب والضوء واللون..

وتعلمت منها لغة الألوان، فكان شعرها بلون وفستانها بلون وحقيبة يدها بلون وحذاؤها بلون وعيونها بلون وابتسامتها بلون وشفتاها بلون وصمتها وحياؤها بلون و.. و..

كانوا يعبدون النار لتوهجها والقمر والشمس.. أما أنا فأحرقنى التوهج يوم عرفت ألوانها ومزجتها بأناملي...

كانوا يعبدون الآلهة فجعلوا لكل مظهر إله ببناء المعابد ونحت التماثيل.. إله السماء والبحر والحرب والقمر و.. و.. وفكرة خلود الروح إلى الأبد.. المرتبطة بالحضارات القديمة.

حقيقة زيوس ملك السماء والرعد والبرق ومردوخ وبعل.. و.. و..

كنت مولعا بحقيقة ماسينيسا ويوغرطة وحنيبعل، بناظم الإلياذة والأوديسة هوميروس وبرابعة العدوية وبنفرتيتى وكيلوباترة ونابليون بونابرت وهتلر ومولعا بطبق السمك كالقرطاجيين الذين تفننوا فى رسمه..

كنت أريد أن أكون هرقل أو هيركولس إله الزراعة والتجارة.. أن أكون فى عينيها بطلا.. بطلا أسطوريا..

أن أخنق الأسد وأقتل الأفعى ذات الرؤوس التسعة.. أن أقبض على الخنزير البرى حيا..

أن أقتل بالسهام طيور بحيرة ستيمفالا التى كانت تتغذى بلحوم البشر وأكون هرقل البطل..

أن أروّض أمامها ثور كريت الهائج برداء أحمر كما يفعل الأسبان.. يسرقون الحب باللون الأحمر ويقتلون باللون الأحمر ويتلذذون باللون الأحمر وينتصرون بالأحمر؟

أن أقطف التفاحات الذهبية من حديقة جزر هيسبريد المسحورة..

وأن تكون هى عشتروت آلهة الحب والجمال.. عشتروت التى أعادت الحياة إلى أدونيس إله الجمال والخصب بعد أن قتله خنزير بري..

أن تكون امرأة وأكون رجلا فى عينيها يسحرها.. رجلا وكفى!

كانت أشعة الشمس ترسل آخر خيوطها المشعة وهى تستحم بماء البحر.. تطاردنى عيناها من قلق أتعبنى وحنق تصورته فى غيابها!

- هل أصارحها بمخاوفى السخيفة ومحاصرة أوهامي..

- ربما تظن أننى عابث بحياتها أو ربما، و ربما..

فيرد عليه خاطره قائلاً:

- لكنها تعشقك ولا تخفى استعدادها للبقاء معك؟

- أوهام سخيفة!

قاطعَّت صمته برقة وهى تخفى غيظها وقلقها منه:

- الجو حار..

لم أسمع ما قالت وتظاهرت بذلك.. كنت أقاتل نزعاتى وأحارب زيوس وهرقل ويوغرطة وماسينيسا ووساويسي، فسحبت من جيبى سيجارة وأشعلتها..

رمقتنى بنظرة تعب وملل قائلة:

-لم أعهدك تدخن.. منذ متى؟

-منذ أن عرفتك؟

-وهل معرفتك بى تسيء لشخصك..تهلك صحتك.. أنت تعلم أنه مضر للصحة..

-إنها خيانة لراحتي؟

-خيانة!

أشعل سيجارة أخرى وهو يقول:

-وإن ابتعدت عنها خيانة.

ثم يلتفت إليها وهو يقول:

-الفنان يرسم بالألوان وأنا أرسم أشكالا فى الفضاء من أنفاسي، وأنت فنانة تعرف كيف ترسم الأشكال؟

-أنتَ تحترق بلهيب الخطر؟

تجهم فى وجهها:

-أسئلة كثيرة بلا جواب..

ابتسمت ابتسامة عصبية وأدركت أنه عليها أن تنهى هذا الحوار الذى لا تفهمه، وأن تغادر المكان بسرعة.. استأذنت منه بلطف ثم رحلت.. رحلت..

رحلت والحقيقة أنها خطيئتي.. خطيئتى أنه كان لى وجه آخر غير وجهي، وروح غير روحى تزورنى تلك الرؤيا المحملة بنذير الشؤم .

أى جنون ذاك حينما نتحدث عن الحزن و الفرح وماذا قدمنا لأرواحنا التى نعبث بها دون تردد ولا خوف.. نلغى كل الحدود المرسومة.. نلغى ذوّاتنا.. نلغى حدود القدر فتجرفنا تيارات غزيرة محملة بذنوب الآخرين..

يسعدنى أن أزور مريضا ويسعدنى أن أمسح دمعة يتيم، وأن أدق على باب جارى وألعب مع الصغار وأسقى الأشجار و.. و..

- لكنى لم أفعل !

وتساءلت بعدها أننى جزء من جنة أكاذيبي...

اعتـرافات اللّذة والنار

أعترف أننى امرأة حذفت النقـاط من الحروف وقرأت الكلمات بالمقلوب ورسمت الأفكار بالألوان..

أعترف أننى مزقت ستارة صمتى ورحلت عبر رموشك الكثيفة لأسرق السكون من دمعاتك..

فلا جرم إن أبديت اعترافى والتخلص من حب أوقعنى فى الاعتراف..

حينما تمتزج ألوانى وتصدح مواويل أنفاسى وأرسم أجمل لوحاتى تحكى جغرافية لهيبي.. أعترف..

أعترف أننى مزقت فساتينى المخبأة فى الخزانة بعدما رفضت كل الألوان ورميت بشظايا المرايا المكسورة حتى لا تديننى الخطيئة..

بقايا براءة وطفولة نسيتها فى صورى العتيقة، تداعب طيوفها أضلعا مهشمة وبقايا أنفاس محترقة..

مازلت امرأة تفرش البرارى الواسعة بألوان الطيف المكبوتة وترنو رويدا رويدا إلى لسعات حرائقك على صدري.. فتستحيل اللحظات المختصرة وتهرب من تمردى حقيقتى المرفوضة..

أعترف..

أعترف بانهزامى وبانسحابى المطرز بلآليء ألواني..

وأعترف بحيائى الذى كبّلنى لأذوب فى بقايا أحلامك..

لست أدرى إن كنت أعدمت نفسى قبل أن أرحل على وسائدك، وأرمى بجسدى على صهوة جواد يرفض القيود!

أعترف أننى امرأة مازالت.. تحبك..!

لقد كنت أبحث فيك عن نفسى الضائعة فى أنفاسك.. كنت أريد أن أقول لك أننى امرأة ترفض الحواجز والتناقضات والرغبات المكبوتة..

امرأة تلملم شتات عمرها الضائع على شفتيك.. ارتبكتُ حينما رأيتك تقترب مني.. من ألوانى التى مزجتها ولوحاتى التى رسمتها فى غربتي..

كأننى أودعك سرا وتهجرنى علنا..تركتنى بجسد محموم أهذى بحقيقة أحاسيسى التى هزمّتنى أمام وسامتك، فأكتشف أننى على وشك أن أضع قبلة على خدك البارد لتتحول إلى فوضى بداخلى وجنون يهزمنى ولحظة حزن تدهشنى حينما أعترف.

آه..

لقد قاومت المرأة الأخرى.. الساكنة بداخلي.. هى وحدها التى اكتشفَت أننى لست امرأة وهى الآن تنازع اكتشافي!

اكتشفت أننى جسد لامرأتين تتحديان الاعتراف كل على طريقتها.. اعتراف الشهوة واعتراف الكبت واعتراف الحرمان واعتراف الأنوثة؟

كنت أعى أن فى اعترافى هزيمة لا أقوى على تحملها.. امتلكَت

شيئا منى وملأتنى بالشهوة والجنون.. تسلّلت إلى سريرى وهى ترفض المكابرة..

امرأة أخرى تحايلت بها على نفسي.. تحايلت عليها بعطرى وبألوانى وبصمتى وبكائي...

تحايّلت عليها بهزيمتى الطويلة منذ أن حُفرت الأوتاد فى أعماقي..

امرأة أخرى لا تريد أن تكون نسخة مني.. من فشلى وهروبي..

امرأة متجددة.. تتجدد بداخلي.. تعلن رفضها وطواعيتها.. ترفض جوعى وعطشى وعرائي..

امرأة تتأملنى وكلها تحدي، وامرأة أتأملها وكلى حياء ودهشة.

أعترف أننى أمقت تلك المرأة التى تسكننى مجبرة.. تختار الجسد واللون بشهوة المومياء المحنطة..

شهوة الأجساد العارية.. شهوة اللون الفاقع المبهر الذى يظهرها امرأة مني..

امرأة اللون الأصفر والأحمر.. امرأة يبهرها البريق واللمعان والإثارة.. كل ما هو أصفر وأحمر.. شعر أصفر وليال حمراء..

إنها امرأة لا تشبهني.. امرأة لا تشبه شعرى الكحلى أو عيونى السوداء أو سمرتي.. أو..

امرأة أخرى تحرّضنى أحيانا على الخطيئة لتكشف المجهول وتدرك سر اللّذة والنار معًا.

امرأة تخجل من عباءتى وفساتين أعراسى المذهبة، وتخجل من

انتماءاتى وخصوصياتي..

وأخجل منها كامرأة ترفضني.. أخجل من حماقتها واستهتارها..

امرأة مزاجية تبحث عن الأنوثة وفك رموزها.. مندفعة..

تلبس أقنعة متعددة وتجعل من التحدى سلطة القرار ورغبة قوية وعميقة فى تفكيك وتحطيم رموزها أو تقديسهم حد الذوبان.

امرأة تشتهى ثقافة الاستعراض وبيع جسدها مجانا باسم التحول والعصرنة والفن والأنثوية!!

لوحات لجسد متعدد..

أوجسد للوحات متعددة وألوان مختلفة.. جسد يصنع اللغة الغنائية بلوحات متشابهة ومتعددة، وأحيانا تمارس لوحة الجسد لوحة الغواية..

كأنها امرأة تقول لي:

- أحتج بجسدى العارى عن قمع مسكوت عنه؟

أو جسد يكسر الوصايا ويحطم أوتاد البادية!

أو جسد شهواني.. غريزى يثير الأحاسيس ويحرض على الإثارة وعلى التعامل فقط مع الجسد؟

جسد البوح ونداء الأنثى المحرومة، واعتراف بالهزيمة والإحباط والحرمان كامرأة، وتعويض الأمزجة المريضة بإنتاج الخطيئة فى كل مكان.

امرأة أمقتها بداخلي..

امرأة تعزز ثقافة الجسد وتصنع منه نصاً جديداً ومتجددا كل يوم فى الفضاء، وبلوحات مختلفة شبيهة بعمى الألوان.

امرأة هستيرية تصنع من جسدها رسالة ممزقة على أضرحة توابيت قديمة!

امرأة تتأملنى وكلها تحدى وامرأة أتأملها وكلى حياء ودهشة.

أعترف أنها امرأة ليست مني..امرأة أخرجت من ضلع ملتوي!

كانت بالنسبة لى لعنة داخلية تلاحقنى تسرق منى بركة الأولياء الصالحين التى تعوَّدت مباركتهم عند زيارة أضرحتهم.. مرة بحبات البيض.. ومرة بدجاجة سوداء أوحمراء والدوران بها حول الضريح لإبعاد الشر ومرة للتأمل والجنون والإبداع والهيام على طريقة الروح المسافرة..

كنت مثلهن.. امرأة أخرى تخرج مني.. تبارك البركات.

كان يكفينى وقتها حب وجنون وبركة وصمت وبكاء.. لحظة تسقط عنى تلك المرأة الدخيلة التى تسكننى رغما عني!

امرأة لا تعجبها ملابسى ولا فسيفساء لوحاتى أو كهوف ذاكرتى التى تعمَّدت الانسلاخ منها ولبِست تضاريس جغرافيا أخرى.. ملامحها غير ملامحى ولونها غير لونى الأسمر..

امرأة يذهلنى ذنبها المستمر فى التطرف ولعبتها بالحياة.. تتلاعب بالمتعة والدهشة والإغراء والشعور وبعمى الألوان وبالرغبة فى الاحتواء..

وامرأة أخرى بداخلى تعترف قائلة:

-أعترف أننى امرأة الأربعة جدران..

امرأة أمامها عجوز سليطة اللسان وخلفها زوج مغلوب على أمره أدمن الترحال بين القضبان الحديدية، وبين أذرعى أفواه أرانب تمزق أثدائي..

أعترف أن الأربعة جدران كبّلتنى واخترت الصبر قيودا لأحلام جميلة أجّلتها إلى ميعاد أترقبه قريبا..

أعترف أننى امرأة تشتاق الملابس الجميلة والألوان الزاهية.. و.. و..

وأعترف أننى امرأة أتعبها الصبر وأرهقها الانتظار؟

وامرأة أخرى لا أعرفها وقد تشبهنى كامرأة تعترف بقول الحقيقة أمام المرآة ولسان حالها يقول:

-رأيتُكَ تتأملنى كما كنت أتأمل نفسى أمام المرآة.. المرآة هى التى تعرِّينى دون حواجز، كما كان الخريف يعرى الطبيعة من زينتها ويقهرها بلونه الشاحب..

ألوِّن المكعبات والمربعات والخانات والمثلثات والدوائر.. والشتاء وحده يغسل كل ألواني..

المرآة وحدها لم تخيِّب ظنى فيما حاولت أن أخفف خيباتى كلما اقتربت من لوحاتي، وأخجل من آثار قبلاتك.. أخجل من عناوين أفكارك؟

أرفض تلك القبلات..

أرفض تلك العيون التى تحاصرني..
أرفض وأرفض دون أن تشدنى إلى أحضانك..
قلت لك يوما:
- أحيانا لا يبقى لدينا ما نقوله..
- تأمَلْتَنى ثم انصرفتَ..
كنت هادئة وكان لا يجيد الكلام المعسول.. لكنه يحبني..
ولا يرتدى الملابس الأنيقة.. لكنه يحبني..لم يكن حبى ثرِياً.. لكنه يحبنى بلا شيء .
لم أكن أعرف من حياتى معه إلا مقاطع من أغنية انجليزية لا أعرفها.. مقاطع تحرقنى فى صمت..
كانت تقول أغنية الرقص:
فتشوا فى قلوبكم..
أنتم تحترقون..
يمكنكم أن تطيروا..
ليتحرر الجميع..
لنتحرر..
لنخلع حذاء المناسبات..
انسوا أحزانكم..
ليتحرر الجميع..
لنخلع حذاء المناسبات..

كنت أريد أن أكون شكسبير الذى سبقنى بألواني.. أن أحطم تلك النظريات الحديثة التى تقول أن الفن العظيم هو الذى تمتزج فيه الواقعية والرومانسية..

كنت مولعة بالرسم وكان الواقع مادتى فى البناء، وتصورى أن أجعل منه صفة انشغال خيالي.. مصادر تيه جمالى لا يعيدنى إلى الواقع وإلى تلك النظريات.. فضاءات أخرى وأحلام أجّلتها مرارا وتكرارا..

أن أكون مخلصة لذاتى وللّذة وللطبيعة.. فأطلقت العنان لعدستي.. للقبض على مخيلة "دى ستايل" استعملت خدعة

الصورة حتى يظن من حولى أنها رسم..

آه من الخيال ومن الخداع..

وآه من مخيلة لوسط جميل بين التوقع والوقوع.. حيرة الطبيعة.. الطبيعة البريئة..

مسكونة أنا بهاجس المغايرة وبنزعة القلق ولذة المراوغة، ومسكونة بقول أدونيس..الشاعر الآخر "كلنا نتائج لأناس سبقونا" وقتها قلت:

-ما أسهل التقليد و ما أصعب الابتكار..

تراكم الألوان أو تعريتها هى إيقاع آخر يشكلني..يمزج أنفاسى حينما تحترق كل أوتاري.. كى أثير الضحك أو الاستغراب فكانت لعبتى الألوان.. أن أرسمها لأحررها من أسمالها الزائدة..

الرمز والإشارة لعبة أخرى قد تفقد فاعليتها إذا لم تكن قابلة

للإيصال "أن تكون فى حلة جديدة " كما يقول بيكاسو..

بيكاسو الفنان الذى رسم اللوحة بأكثر من شكل وزاوية.. فنان التكعيبية ورجل تبنى لوحات الجسد أو مدرسة الجسد والجمال فكانت لوحاته تخبئ وجها من وجوههن وتعلن سقوطهن أمام شيطانه.. أمام ريشته.. عاريات للوحاته ومغرمات حد الجنون وبعيدات كظله وفاتحات لشهيته فى الرسم وحتى محطات سريعة..

لوحات مرة للغرام ومرة للاستسلام ومرة للتربع ومرة للانصهار...

سقطت مادلين ووقع اللوحة باسمها المرأة والعذاب ثم الجميلة والشابة صاحبة الشعر المبتل فرناند أولفية أو ايفا ووقعها باسم الجمال، وراقصة الباليه أولجا كوكلوفا ووقعها باسم صاحبة الوشاح ثم متسلقة الجبال مارى تيريز ولتر، وتيودورا ماركوفيتش، فرانسواز.. و.. و..

وفى النهاية لوحة صنعَتْها امرأة ليكون لها توقيع اسمه بيكاسو، وشيطان متعدد الأوجه اسمه اللون بجاذبيته ليسقط كل الأجساد رغما عنها، وترغمنى نساؤه عن التساؤل بين شكلهن ولونه الذى اغتصبه من روحهن.

كان الشكل يثير الدهشة والتساؤل.. شكل خاص يكسر منظومة القيّم الجمالية فكنت أرى فى القبح جمالا آخر ومرآة تعكسها ألواني.. أشياء تعكس ذاتى وتعكس واقعا آخر..

فى البداية لم أكن أعرف ما تعنيه لوحاتى ولا تلك الألوان المتفردة..

غير أننى حينما مزجتها أحسست بعذوبة الجمال وروح أخرى تدغدغ شعوري..

قرأت يوما ما فى مجلة عن طرفة أثارت هواجسى أن صحفية سألت صاحب الريشة اليسرى بيكاسو قائلة:

- ما معنى ما ترسم ؟

- أنا لا أفهم لوحاتك؟

قال لها:

- اذهبى واجلسى تحت تلك الشجرة.

فعندما عادت سألها:

- ماذا سَمِعت؟

قالت:

- زقزقة عصافير وهديل طيور.

فقال لها:

- هى جميلة؟ وما معناها؟

قالت:

- لا أعرف ماذا تعني، ولكن أشعر أنها جميلة.

فقال لها بيكاسو:

- لا تبحثى عن قصة، بل أشعري.

ومن وقتها صدقت أن الناس يصدقون الرؤيا، أكثر من تصديقهم الكلام.. فكنت أبحث عن ذاك الشعور فى تلك الألوان وعن طفولة

مقهورة مخبأة بين ضلوعي..

عن عيون أمى وأبى وإخوتى وجدتى وأبناء الجيرة والأهل والأحباب.. عن صديقاتى وأساتذتي.. والحيطان العالية وأشجار التوت.. الأحمر والأسود.. عن تراب بيتى وأنا أتمرغ فيه.. أمسح وجهى وأذره فوق شعرى المجعد بضفائر مربوطة خلف رأسي.. أبحث فى الألوان عن رائحة الصابون وهى تنخر أنفى وتدمع أعيني..

أبحث فى مزج الألوان عن صراخى وبكائي.. عن صوتى المبحوح الهارب مع شلالات الماء فوق جسدي.. وصوت أمى يدندن فوق رأسي..

أمى التى كانت تغسل أجسامنا وأجسام أبناء عمى بالماء والصابون.. تغسل رؤوسهم الملونة "بالجدري".. كانت أمى لا تعرف غير الماء والصابون وسراويل الجينز والأفرشة وإعداد الطعام للولائم الكبرى..

أمى لا تتعب..

كانت أمى لا تعرف راحة لجسدها.. كانت تموت فى الشهر ألف مرة و لا تعرف الطبيب؟

كنت لا أريد أن أكون شبيهة أمي.. أمى التى لا ترفض الأشياء المُسَلَم بها..

أمى مشغولة بسجادتها وبالصوم وبزيارة المقبرة فى المواسم والمرضى من الأقارب وبالغسيل والطبخ وتثور ثائرتها إذا ما تطاول عليها أبى بالضرب ساعة ما يتعدى لسانها كل الخطوط الحمراء، أو تنتفض

حينما تتكرر صورتها فى أيامها المتتالية.. تجمع ملابسها وترحل إلى بيت أهلها وتتركنا نلعب لعبة الخيار.. صغار فى حيرة الحب والاختيار ؟

كانت أمي.. هى أمى وأنا ابنتها..

ابنتها.. آه.. ابنتها..

كنت طفلة صغيرة وأنا ألعب فى حجر أمى أعبث بخصلات شعرها الطويل مرة، ومرة أمشّطه وإذا ما نظرت إليّ تركت المشط ونزلت من حجرها دون بكاء أو صراخ كما تعوَّدت منى وأنا صغيرة إذا ما نزعت ثديها من فمي.

ثديها ذو الحلمة البنية تركنى ألعب بأصابع يدي.. أضع الإبهام فى فمى وبذلك فصلّتنى أمى عنها وعن الحلمة البنية وعن الحياة واللعب فى حجرها..

ولكى تنسينى مص ثديها تجلسنى فى حجرها.. تأخذ يدى وتعد أصابعى ثم تدغدغنى بقوة حتى أغرق فى الضحك.. الضحك وحده ينسينى ثدى أمي؟

ثم تدغدغنى وأضحك.. وأضحك.. وهكذا حتى أنام!

مرة كنت أنام قبل أن تكمل عد أصابع يدى وأنسى أن أمص ثديها، ومرة حينما تبقى عيونى مفتوحة كالبدر ويزداد إلحاحى على الرضاعة تواصل اللعبة وهى تقول:

-الحلوة.. الصغيرة تبكي.. وتدغدغني.. وأضحك.. أضحك.. ثم أنام..

ككل ليلة تتكرر اللعبة وأنام فى حجرها..

لقد سئمت أسرارى وأنا أخفيها، وأخجل من لعبة الأصابع وهى تهاجم دهشتى وتتملص منى مرات لتعتذر عن سقوطى فى لعبة الضحية وتُغيِّب وعى الكامل.

كنت متأكدة أننى أقطع علاقتى مع عواطفى التى أتعبتنى وأتعبت أمى بها،واليوم بالذات فشلت وأحسست أن خيالى يمضى بى خطوة خطوة باتجاه الوسادة.. أضع رأسى المثقل عليها وأنام.. أنام..

أنـام وليس فى حجر أمى ودون أن تدغدغني؟

انفصـال مؤلم.. صدمة تثير فى قلق شديد.. كأننى كنت فى الجنة حينما كنت فى حجر أمى وأمص ثديها، والانفصال كأننى طردت من الجنـة التى كانت تحتويني.. الانفصـال يعنى الحرمـان وكبت مشاعري.. الفطام يعنى القلق.. يعنى ثورات متتالية ونـار متواصلة تتأجج بداخلى يوما بعد يوم..

قلق من المدرسة الذى يدخلنى فى دوامة أخرى بعيدة عن حجر أمي..

والزواج انفصال آخر يتعدى على نفسيتى ويحرمنى من حجر أمي.. إذن القلق يثير فيّ الخوف.. خوف من الحياة والموت فى آن واحد..

لقد أدركت أن الطمأنينـة تراقبنى كخطواتى المتعبة خطوة خطوة.. تتأملنى بشيء من الحذر وكأننى كنت فى جنازة مع نفسي!

يهـزنى الانفعـال ويمزقنى الترقب فى تحديد نقـاط استسلامي..

سقوطى الذى قتل خجلى وصنع من لذتى

أشكالا وألوانا ورموزا تقرأ بالخاطر وتخدر النائم ليواجه نورى بدفء أصابعى التى صنعت لغة التخدير فى النوم وغيَّبت وعى الكامل.

شجن خفى يشل رغبتى فى البكاء ولأول مرة أجد نفسى خائفة من إرادتى التى أراها تغلق بابها بداخلي..داخل عتمة ضبابية أعجز عن البقاء بداخلها وكأننى فى يوم الحساب!

كانت أصابعى مشدودة لأن ما كان يجرى فى الشارع من فوضى وهتافات بإسقاط الظلم.. حرق للسيارات وقطع للطرق تركنى أغمض عينى وأسرح بخيالى إلى روح العــدل.. إلى مجتمع تكاملي.. وفى نفس الوقت يشعـرنى بالعجــز.

أن أسرح بخيالى بعيدا عن مافيا الفساد ومافيا المال ومافيا المخدرات ومافيا الثقافة ومافيا المتاجرة بالعقول ومافيا الجمال والمتاجرة بالجسد وعن مافيا الحب الذى أصبح يمرر كلمات قصيرة عبر خطوط الهاتف.. كسلعة تجارية وعلى ماركات مختلفة وبلغات ملونة.. يصطاد ضحاياه بكل الألوان وبكل لغات العالم.

كنت موقنة أن فى حجرتى الضيقة وجه جميل ينتظرنى وصمت أخافه..

صمت أخافه أن ينهى لغة الحوار بداخلى وتعود الأشباح من جديد تطاردني، تحدث بداخلى الحرج والارتباك أننى سقطت مرة أخرى فى سقوطي، وأن الطمأنينة مازالت تترقبنى كخطواتى خطوة خطوة..

خطوات بين المد والجزر..تسحقنى أفكار وتنتشلنى أخرى، وما تلك الغصة التى تعترينى إلا غصة الألم تعتصر إحساسى الملون، أخبئ جدلا عنيفا بداخلى وسخطًا وتذمراً ولعنة لحياة البؤس والفقر والشقاء..

كانت ذكرياتى عن بلدتى تحضرنى فى كل وقت، بأشواق هائجة تعكر صفو مزاجى أحيانا وتشعرنى بالدفء والحنين أحيانا أخرى..

كنت أبحث عن خطوطى الملونة بالطباشير على الحائط وعلى الأرض.. نلعب لعبة المربعات والمثلثات والحيز والدوائر والأرقام ولعبة الخط..

لعبة الخطوط الملتوية والمنكسرة، لم أكن أعرف وقتها أن لتلك الخطوط التى تعيد تكوينى وانتمائى إلى مراعى الطفولة، والتى كنت أعبث بها قد تستوطننى حتى النخاع!!

أبحث مع صغيرات الحى عن تلك الدمى التى نصنعها بأعواد أشجار التوت..نخيط لها ملابس أحلامنا، ومن صوف النعاج شعرا طويلا كطول صبرنا.. نصبغها بقشور الرُمان والحناء.. نتباهى بالألوان..فكانت لعبتنا الألوان.. صغار هويتهم الألوان وصنع الأشكال..

تذكرنى طفولتى المقهورة بجواربى الممزقة وملابسى المزركشة..

رأيت فى جواربى المقطعة ايحاءات كرة دائرية.. نملأ الجوارب بقطع من الأقمشة المهترئة والبالية.. نلفها ببعضها البعض جيدا حتى تأخذ شكل الكرة .

وأخذنا شكل المثلث واللون من علب الطماطم المرمية فى الأزقة الواسعة..

نصفف ست علب فى الأسفل ثم ثلاثة ثم اثنان وواحد على رأس المجموعة.. شكل الهرم ومن ثمة عرفنا المثلث واللون بألوان العلب المختلفة..

واكتشفت فيما بعد أن أهرامات علب الطماطم المصففة قد تأخذنى يوما ما إلى أهرامات خوفو وحضارة الفراعنة..

وأنا أرسم كانت الأشكال تأخذ شكل المثلث.. المثلث الوهمى أو مثلث الشيطان.. مثلث برمودا الأسطورة التى رسمت نفسها على لوحاتى وألوانى دون استئذان..

كانت السعادة فى الحرمان، حينما نبتكر ونبدع من العدم أشياء تفرحنا.. تملأ نفوسنا الثقة والحب.. صغار هويتهم الألوان وصنع الأشكال..

كنت أبحث فى تلك الأشكال والقطع عن طفولتى وعن ألوانى المخبأة بداخلي..

كنت أريد أن أشبه زنوبيا وولعها بالصيد والقنص، وأن آخذ جمال نفرتيتى وقوة فاطمة انسومر ودهاء الكاهنة

وحكمة الملكة تينهينان..

كنت أريد أن أكون هكذا وليس مومسا تترنح على صدر الرجال وتبيع اللّذة للسذج والحمقى الباحثين عن تفريغ شهواتهم الدفينة

بمواقع تجارة الرقيق الأبيض..

الرقيق الأبيض كلمة حضارية لمفهوم الجنس.. لغة جديدة فى التعامل مع الأجساد.. مم.. مم..

أنا لا أريد من حريتى إلاّ قيود ذاتي..

أريد من حريتى أن تعيدنى إلى قيود ذاتي؟

أنا امرأة يكثر وجعها مرة باسم الدين، ومرة باسم الحرية، ومرة باسم التقاليد، ومرة باسم الأنثوية، ومرة باسم التحرر، ومرة باسم التيارات، ومرة باسم الوطنية، ومرة باسم الأمومة، ومرة باسم الطفولة..

أنا امرأة يكثر وجعها مرة باسم الحب، ومرة باسم الاغتصاب، ومرة باسم الجهل، ومرة باسم الذكورة، ومرة باسم تعدد الزواج، ومرة باسم العنوسة، ومرة باسم الأسرة ومرة باسم لاشيء... ومرة... ومرة..

أنا امرأة لا تهوى المعارك الفاشلة والنظرات الساقطة والكلمات الجارحة والقبل المشبوهة..

أنا لم أكن عشتار ليهينها كلكامش حينما طلبت الزواج منه قائلا لها:

- "أى خير سأناله لو أخذتك زوجة..

أنت، ما أنت إلاَّ الموقد الذى تخمد ناره فى البرد..

أنت كالباب الخلفى لا يصد ريحاً ولا عاصفة..

أنت قيرُ يلوّث من يحمله..

أنت قربة تبلّلُ حاملها.."

ولكى ترد الإهانة طلبت من أبيها الإله "آنو" أن يخلق لها ثوراً سماويا يغلبه... لكن كلكامش قتله مع أخيه وصديقه أنكيدو.

هكذا حدّدت غرفتى أنفاسى وألوانى وكلماتي.. هى قطع الجدران المسطحة والمستقيمة والمائلة.. هى الأبواب والمرايا التى أعطتنى الإحساس بالثبات والقدرة على التكيف..

تلك المرايا التى كنا نبحث عن شظاياها فى الحى ونرى فيها أجزاء من وجوهنا ونحن نضحك، لأننا نرى وجوهنا قطعا فى قطع المرايا.. صغار هويتهم الألوان وصنع الأشكال..

البيت هو الانفتاح على الكون وباتجاهات مختلفة، أُلَوِن ذاك الفراغ اللامتناه الذى امتزج بالحنان.. وكانت خطيئة ضد الحياة أن لا نرقى بهذا السمو الروحي..

جزيرة النوارس

بقى فى غرفته الفارغة وجدرانها القاتمة ينظر إلى المرآة حائراً تراوده الأفكار تارة وتغيب تارة أخرى.. تقلقه سائلة:

- كيف نجعل لحظة من الراحة دائمة؟

الكل يقوم بمهمة المؤثر..

- هل يشبه الفنانون الفلاسفة بلغة النظر والتأمل.. القادرة على إذابة الأشكال؟

وحده الفن الذى يعيش ذاته.. يتجرد من أنانيته.. ولكن عَرَفْتُها أنانية.. يسكنها الرسم أكثر مني.. يزاحمنى فيها ويعريها أمامي، إنها امرأة بكل لون كألوانها التى تمزجها بأنانية مبالغ فيها.. تتذوقها بإحساس أرهقنى وأتعبنى من انتظارها أمام كل لوحة أجد نفسى فيها بعيدا عن أحلامها أو حتى فى ألوانها التى تختارها بدقة.

وأنا..

- هل يمكن أن أتجرد من أنانيتى وممن هم حولي؟

وإذا كان لابد من الحب.. فيجب أن يكون بالكلمات وبالألوان.. مجردا من الأنانية..

كلمات تتلعثم وتترجم وترتعش وتصرخ.. إنه الإحساس بالحب، والفن هو الحب والألوان.. هو العذاب المتجدد بداخلي..

لم أكن أرى فى مرآتى صورتى وهمومى بل كانت غرفتى الضيقة

تزعجني، وما المرآة الكبيرة العالقة قبالتى إلا لإيجاد التوازن داخل الغرفة..

كى تصبح الغرفة الضيقة واسعة ولكى تضفى الجمال.. فلقد آثرت أن تكون مقابلة للنافذة لتزيد من الضوء بالنهار والاستمتاع بالمناظر الجميلة بالخارج وأنا بالداخل مستلقى على السرير..

أو ربما لتحدث التوازن بداخلي؟

كنت أكره تلك المرايا المركبة فى السقف.. كنت أحس بالدوران، رغم أنها لا تحسسنى بانخفاض السقف إلا أنها كانت تزعجنى وتتعبني.. أرى نفسى أمشى فوق نفسي.

كانت فكرة "دق باب قلبك، ففيه وحده تجد العبقرية" تعنى لى الكثير لقد حققت فكرة ألفريد دى موسيه فى نفسى غايتها،، ألغت تلك الخطيئة التى سكنتني.. خطيئة الشيطان.. خطيئة ورثتها الطبيعة منذ الأزل..

وبجسم نحيل ووجه حزين وملابس تفوح منها رائحة نتنة وقف أمام النافذة يعيد التوازن وترتيب الأشياء أمامه وهو يردد بداخله:

- خطيئتك أن تعترف كاعتراف صديقك صاحب الخمرة وهو يردد قوله فى التوبة:

يارب إن عظمت ذنوبى كثرة
فلقد علمت بأن عفوك أعظم
إن كان لا يرجوك إلا محسن
فبمن يلوذ ويستجير المجرم

أدعوك رب كما أمرت تضرعاً
فإذا رددتَ يدى فمن ذا يرحم
مالى إليك وسيلة إلا الرجا
وجميل عفوك ثم إنى مسلمُ

ثم أدار ظهره للنافذة وعاد إلى سريره مرة أخرى يرشف فنجان القهوة، وهو يردد قوله كأنما يريد استكمال الفكرة العالقة بذهنه..

- لا داع للحزن ما دامت الأحداث الهامة تقع فجأة؟

كان يشعر بثقل نظراته وبهدوء واعتزاز إلى تلك الأفكار التى راحت تتسلل إلى مخيلته فتجمَّع الماضى أمامه.. مفعم بالعظمة والحزن..

يستحضر الوجوه التى عرفها وجها.. وجها... يقلب صورهن رويدا.. رويدا.. تذكر وجهها من بين الوجوه التى تعمد أن يغفل عنها.. شابة متوسطة القامة.. رقيقة.. قمحية البشرة تشع من عينيها العسليتين نظرة حالمة.. تزين رقبتها بملكة الأحجار الكريمة..

عقد لؤلؤى تتماوج ألوانه بين الأحمر والأزرق.. يؤكد على غناها فى العيش، لكنها تبحث عن السعادة مثلي؟

وكم تمنيت لحظتها أن أكون المحارة التى تسكن فيها!

إنه عقد براق تشع منه ألوان الطيف حينما تغتسل المدينة برذاذ المطر الحالم..

حدق فى عينيها يستقرئ تفاصيل معاركه معها وشحن الجو فى ذهنه باحتمالات مختلفة وتناقضات كابدت حياته.. فانتزعت الطمأنينة من نفسه وقد صعقته الأحداث، ولبث مدة لا يدرى ما

عساه أن يفعل.. ثم ابتسم ابتسامة باهتة تكذب ظنونه تلك الأحداث المضنية.

كانت ملامحها تخفى أشياء منى فحاولت أن أرغم نفسى على تذكرها.. فى ابتسامتها..فى طريقة كلامها.. خيالها وعنادها.. جمالها وصمتها..فى ألوانها.. كانت أشياء منى تختفى فيها..

كانت "ايكوزيوم" تمتاز بالجمال وبالفطنة والذكاء والإغراء والدهاء وتميل إلى النقد والثرثرة والبكاء وتكره الصمت والوحدة والعنف..

ولم أكن أعلم أن "ايكوزيوم" هى جزيرة النوارس.. النوارس البيضاء التى تسكن عباب البحر وخضرة الأرض أنها تخبرنى بحضورها الذى يدهشني.. كيف نسيت تلك الأشياء الصغيرة والتفاصيل المحملة بالذاكرة المختفية فى حنانها الفياض وعيونها الواسعة..

فى جزرها التى احتوّتنى فى جزيرة واحدة.. راحت تقص عليّ حكايتها مع الماضى الذى هربت من سماعه يومها.

كيف اكتشفت هذا كله مؤخرا بعدما غادرتني..

آه "ايكوزيوم" يا جزيرة النوارس البيضاء.

سكاكين الخيبة

كنت أضجر من صاحبى "مرزوق" أوستالين كما كنا ندعوه.. الذى كان يتفنن فى تطويل شعره المتجعد..المتدلى على كتفيه العريضتين.. وجه مستدير يتوسطه أنف صغير مدبب النهاية.. غائر العينين.. بُنِيَّتُهُمَا تشعان رغبة فى التحدى والمراوغة والفطنة.. قوى البنية.. حيوى وخفيف.. كانت تجرى فى دمائه أفكار ماركس ولينين وتلك النظريات التى ترمى إلى السيطرة على المجتمع وحكم الشعوب بالحديد والنار وتوزيع المناشير والكتيبات والحديث عن السياسة وقلب الأنظمة التى تنتهى فى السجن.. أمور لا تعنينى فهى تهلك صاحبها قبل أن يتنفس.

كان يقول لنا دائما:

- فليعمل كل واحد منكم ما عليه من واجب؟

ونسى بل تناسى أنه يعمل ضد واجبه ؟

كانت طاولة واحدة تجمعنا.. عند المساء نلتقى فى مكتبه يوما و آخر على طاولة المقهى.. مقهى "روزا" للطلبة.

اسم لامرأة تحترف التجارة.. كانت ممتلئة الجسم.. رزينة وحادة الطبع وبنظارة سوداء كبيرة تخفى أثار ندبة غائرة فوق حاجبها الأيمن..

كانت فى أواخر الأربعين من العمر.. شعرها البنى الهفهاف يرقص فوق جبهتها العريضة.. لا نعرف عنها شيئا سوى أنها امرأة هربت من

بطش النازية وفتحت بالحى العتيق مقهى صغيرا.. يتجمع فيه الطلبة ورجال الأعمال الكبيرة وأحيانا المشبوهة.. وجوه لا تختلف عن أفكار ستالين وهتلر ونابليون... أسماء لأصدقائي!

وكنت أحيانا أختلق الأعذار قصد الذهاب إلى المرقص الليلى حيث تنطلق السهرات الليلية.. حيث تتحرر القيود وتفقد العقول اتزانها..

كنت أتسلى وما أقساها من تسلية تعذب النفس.. كنت أدس رأسى فى تلك الأضواء والكؤوس الممتلئة.. أنسى أننى رجل بلا رجل..

أنسى أننى بلا امتداد لحياتى القادمة.. أريد أن أنسى تلك الكشوفات الطبية والتحاليل المخبرية.. أنسى وجوه الأطباء والمآزر البيضاء.. أنسى أننى رجل بلا رجل!

كانت رغبتى المستهترة فى عدم الاعتراف إلى صديقى "توفيق" كى لا تحاصرنى نظراته باستهتار رغبتي.. أن لا يعرف سري.. كنت أرى دهشته من تصرفاتى وأفكارى وليالى الحمراء وقوله الدائم لي:

- لا تتحسر على ما فاتك.

حسبتها أول الأمر مجرد نزوة أو إحدى مبالغاتى وإحساسى بالاختناق داخل الغرفة واختلاط روائح المكان يدفعنى إلى الخروج.. واضطرَمَت الأفكار تزعزع خاطرى فى حيرة وذهول..

كنت شديد الضيق من نفسى ومن الواقع رغم استعدادى لمناقشة أكثر الآراء حدة.. أرحب بالجدل واستنكر التعليقات الفارغة.. كل تصرفات أحدهم كانت تعكس انهزاما داخليا.. وثقة مصطنعة وابتسامات فاترة وجدية مبالغ فيها.

لم أكن أؤمن بشيء مما يقولونه أو حتى لمجرد حب الاستطلاع.. فلقد كانت كلها تجارب فاشلة.. ممزوجة بالوهم والدهشة والوجل والاستنكار والتذمر.. ممزوجة برائحة السجن العفن.. إنها نفوس لا تسلِّم بالهزيمة.

لم نكن نعرف من هذه الأفكار غير مشروع مجتمع جديد.. ووثائق تكتب من رجال يسكن قلوبهم غل وأحلام السيطرة وما نحن الصغار إلا آلة للتنفيذ!

أو تأنيب صارخ وإنذار أحمر يقول:

-ألم أقل لكم ذلك؟

ومن ثمة أدركت أن الخوض فى هذه المواضيع ما هو إلاّ مجموعة من التقارير اليومية التى تضاف إلى قرارات وتقريرات قديمة.. والحقيقة أننى تحاشيت الخوض فى مواضيع فاشلة مسبقا وتركت تلك الخيوط المهملة فى ذهنى تلف بعضها البعض وتنتهى دون تصور كامل..

كل ما كنت أفعله عند ولوج المكتب.. أن أقف عند صورته.. أبوهم الذى علمهم السحر..أمعن النظر إليها.. تراودنى أفكار وأفكار وأتخيله يسخر منا ويضحك لأنه استطاع أن يصنع منا دمى لتصوراته وأوهامه وأحلامه.

وتمنيت أن يحركنى الحلم لأصنع من نفسى حلما يتلذذ ويتعذب به الآخرون.

كنت أعود إلى البيت مع شروق الشمس.. أجده فارغا.. مظلما.. صوتها يسكن جنباتي.. يدغدغ خيباتي، وشهيتى إلى فراشها تكبت

آلامي.. أصبت بشلل مفاجئ فأحسست أن جسدى يخوننى ورفضت الخضوع لإرادة البكاء التى كانت تلازمنى كلما عدت إلى البيت..

بيت مراياه متعبة من صورى الفاشلة..

كنت لا أزال أحيا فى تلك النشوة ورغبة البكاء التى تجعل الإنسان لا يرى الأشياء الجميلة إلاّ حينما يفقدها.. ارتكبت حماقة حينما تركتها تغادر المنزل دون رجعة..

قررت أن أبيح لنفسى تلك الخطيئة التى لا تغتفر.. تملكنى إحساس بأن أجثو عند قدميها وأطلب بقاءها معي..

ولأننى رجل بلا امتداد عدلت عن ذلك وسكاكين فراقها تمزقني.. ظلّلت أتأمل وجهها وأراقبها و هى تجمع أمتعتها حتى صورى معها أخذتها..

أخذت حركاتى وسكناتى وأنفاسي.. أخذت رائحة عطرى وتركت أشعار أبى نواس رثاء تعزى به خيباتي..

بقيَت واقفة تخمن فى الوضع الجديد ورسمت على محياها ابتسامة هادئة تخفى حيرتها وخيبات الفشل.

ما أكثر ما تمنيت أن تلك اللحظات لا تدوم..تلك اللحظات التى عرَّتنى عن حقيقتي.. حقيقة خجلى التى كنت أنفثها فى سجائر الدخان التى ملأت الأرضية وملابسى المهملة على الأريكة وكؤوس الشاى المبعثرة هنا وهناك..

كان اضطرابى يزداد يوما بعد يوم، وكلما غرقت فى التذكر يعيدنى بودليير إلى التفكير فى الخطيئة.. يعيدنى إلى حالة عدم التوازن التى

تدفعنى إلى العجز، وربما يعيدنى إلى الوجود بوجه آخر.. أكثر جدية وأكثر صدقا ونقاء..

كنت لا أريد أن أفصح بمكنوناتى لصديقى "توفيق "بأننى قتلت الحلم بداخلي.. كنت أخشى قوله:

- أنك مازلت تحت تأثير تلك الرؤيا.

تلك الرؤيا التى أفقدّتنى صوابى وجادة الطريق، ولأقنع نفسى أننى أكثر التجارب منه.. كانت شهوتهن تسكننى ولذتهن تتملكني، وخيباتى التى لم تقنعنى بعد برغبة انتصاراتى تفضحنى مسبقا فى تلك الكؤوس الزجاجية المملوءة بانكساري، والملونة بانهزامى كل ليلة.

لم أرد أن أكون شبيها بنزار فى اعترافه لبلقيس أنها آخر النساء اللواتى عرف.. يبدأ معها الحياة؟

ولأنها كانت أول وآخر النساء لم أعترف لها.. فلقد أخذت عطرى معها..

لم أجرؤ على قولى لها أن تترك رائحتها فى أنفي.. لأن نابليون قد فعلها قبلي، وهو عائد من الحرب طلب من جوزفين أن لا تستحم حتى يعود..

كان عائدا إلى رائحتها..

آه.. رجال تسعدهم رائحة ونساء تسعدهم قبلة، وأنا تسعدنى كأس فارغة.. كأس ملونة بعطر النساء!

الكؤوس الملونـة

رأيتها فى منامى بلباس أجورى مرصع بالدر والجواهر.. واقفة على تلال الكثبان الرملية.. على رأسها تاج الملكة يتلألأ بذهبية رمل يفرش امتداد أرض عريقة الأمد...

كانت امرأة فاتنة.. جذابة.. رائعة.. سمراء اللون.. قوية الشخصية..خيالة.. داهية.. رسامة.. ترسم حروفها بالإغريقية والآرامية.

قالت لى أنا زنوبيا وهذه مملكتى تدمر.. هذه قلاعى وحصونى وجيوشي.. آثارى شاهدة على العظمة والعزة والمجد والثراء.. وانتحرت بالسم لأبقى دائما عظيمة على أورليانوس.

كنتُ مضطربا لكنها علَّمتنى أن لا أضطرب أمام تلك التماثيل المحنطة.. الصامتة فى كبرياء والجميلة فى الذاكرة.

جعلنى اضطرابى أنسى أزيز سريرى الحديدى وغرفتى الباردة وأسبح فى قصر رخامى كبير، بأعمدة من المرمر المزخرف وحدائق غناء مسيّجة بخرير مياه تطوف حول باقة من الألوان الزاهية.

فتسرى فى شراييني أحلام امرأة ترفض الهزيمة وترفض الأسر تحت وطأة أورليانوس، وبكبريائها تركته أسير جمالها الذى تركه يلهث إلى مسامَرتها فتنهمر دموع خيبته فى مخدعها، وانتهى قوله بأنها زنوبيا..

قوة المشتري.

كانت تتوسع لتكمل حلمها فتوسعت على جسدى الملتهب وأسكنتنى واحات النخيل وأشجار الزيتون ولملمتنى رمالها الذهبية فرمتنى بين غزلان المها والريم لتهب على نسمات صيف ندية تبلل جسدى العاري، فأستفيق على أزيز سريرى الحديدي.

فى الليلة الثانية زارتنى فى المنام.. امرأة جميلة بلباس أبيض شفاف.. رأيتها جالسة على رأس أهرامات عظيمة.. أهرامات خوفو.. خفرع.. منقرع..

رفعت رأسى أبحث لها عن شكل ألفته كل ليلة فى منامى وأسأل نفسي:

- قد تكون ملكة النيل..
- هى كيلوباترا.. إنها تعانق أنطونيوس مرقس..
- لكنها امرأة وحيدة.. إنها تنتظرنى أنا؟

انتظرّتنى لأقف على عجائب الملك خوفو وبنائه للهرم الكبير بالجيزة.. أراد أن يخلد اسمه..

ضحكت ملآ المكان وأنا أردد الخلود قائلا:

لم يكن كلكامش وحده يريد الخلود والبحث عن سر الوجود.. لقد كان الفراعنة هم كذلك يؤمنون بالحياة بعد الموت.. فحنطوا أجسامهم وما كانت الأهرامات إلاّ قبورا لحياة أخرى.

ومن اللباس الأبيض الشفاف وتاج الملكة والصحراء القاحلة وجدت نفسى أسبح بين المروج والبساتين والسلاسل العشبية.. تأخذنى

الأرجوحة يمينا ويسارا وهى بجانبي.

كانت تشبه الأميرة الجميلة الباحثة عن الخضرة.. الملكة أمتيس التى قدم لها زوجها الحدائق المعلقة.. حدائق الجمال كى لا تشعر بالملل..

ورأيتها امرأة كثيرة السفر والترحال.. ممشوقة القد.. حكيمة.. تقود قافلتها من العبيد وبجانبها خادمتها.

قلت لها:

- من أنت؟

قالت:

- أنا جدة الطوارق وهذه خادمتى "تاكامت"..

قلت:

- تشبهين "ماتواكا" أى بوكاهونتاس.. الفتاة التى تحب اللعب.. فتاة شجاعة وذكية.. بوكاهونتاس بطلة السلام.. قرأت هذا فى حكايات الأطفال.

قالت:

-أنا أم الصحراء الإفريقية أسكن بلاد الأهقار.

قلت:

-إنك إذن تنهينان "أم الأشراف" حامية الأهقار وأم الطوراق؟

امرأة تسكن الأودية والجداول والمروج الخضراء.. كانت رائعة الجمال، وبأخلاقها النبيلة شيّدت مملكتها الكبيرة..

وفى اليوم التالى لم أملأ الكأس.. شربت نصفه والباقى تركته على

طاولة الأضواء وعدت إلى البيت..

رميت بجسدى المتعب على سرير الأحلام.. سرير فارغ.. كانت تلك الليلة باردة.. صحبتنى امرأة جميلة.. فارسة ثائرة على صهيل جواد مغوار.. تحمل سيفا براقا وترتدى رداء العظمة.

رأيتها تقاتل بشراسة جنودا مدججة بالعتاد السلاحى الثقيل.. رأيتها بطلة وهى تنقذ البطل الشريف بوبغلة من موت محقق و.. و..

كانت فتاة ساحرة وذكية ومتصوفة.. شجاعة وقوية تخوض معاركها ضد الجيش الفرنسى ببسالة.. رأيتها فى وجه جميلة بوحيرد وحسيبة بن بوعلى ونساء الجزائر يرفعن علم الحرية بألوانه الثلاثة ويزغردن زغاريد الحرية.

فنهضت من نومى العميق على زغاريد الفرح تملأ أذانى وأنا اهتف تحيا.. تحيا.. الجزائر.. تحيا الجزائر.. الجزائر.. الجزائر..

ومرة رأيتها امرأة تحمل فى يديها الخبز.. تدخل بيتى بابتسامة ألفتها.. لقد كانت تستقبلنى فى بيتها بابتسامة الفرح والحب..

وكنت أردّد فى خاطرى شعر درويش:

أحن إلى خبز أمى
وقهوة أمى
ولمسة أمي
وتكبر فيَّ الطفولة
يوما على صدرى يومي
وأعشق عمري،

لأنى إذا مت
أخجل من دمع أمي!

كنت أحبها وحدي، والموت وحده اغتصبها مني.. الموت وحده ألبسها ثوب العروس وألبسنى حزني.. منحنى الكثير من الدمع لأذرفه عند قبرها..

دموع الصمت ورحلة عمرها تمر بذاكرتى كلما أتذكر خبزها..

تركت خبزة على الطاولة ورحلت دون أن تحدثنى بكلمة.. أسرعت الخطى وراءها فلم أجد غير ظلال الأشجار تلون المكان تحت الضياء ونسمات باردة تغلق الباب خلفي..

وقفت مطولا عند الباب الذى أفزعنى غلقه وأنا أردد فى سري..

- إنها فتيحة.. فتيحة.. جاءت من القبر تزورني.. تعطينى الخبز كما تعودت..

يشاطر صدقى أكذوبة باهتة اللون ترتعش كلما حاولت أن أرى جسدها أمامى بعيدا عن القبر..

تحضننى بسذاجة الأطفال البريئة.. تدخلنى قلبها قبل بيتها.. نختلس معا كلمات ساعة الصفاء.. نضجر من واقعنا ونذوب فيه رغما عنا.. تتوسع أحلامنا بغد جميل يحمل أثواب الفرح ويرسم أروع الساعات التى تصرخ فى وجه الأنين..

كان خبزها شهيتى الأولى..

كانت ابتسامتها شهيتى الثانية...

وكان وداعها خبزا أحلم به عند قبرها...

وقتها لم أستطع أن أكفكف دمع الصغيرة "صفاء" وأقول لها أن أمك ستعود لأن الألم أكبر منى ومنها!

كنت أريد أن أصرخ صرخة أرخميدس (أوريكا.. أوريكا) أى (وجدتها)، ولكن الكلمة بقيت فى حلقى عالقة.. لا تريد أن تخرج.. كانت تقول لي:

-لم تجدها بعد.. إنها ليست هي.

-هل كنت أشبه نابليون الذى وصل إلى السلطة بفضل النساء؟

لعب لعبته الغرامية مع المثيرات والماجنات والمتزوجات.. كان عشيقهن.. وبفضل كل واحدة وصل، وشيّد امبراطوريته العظمى.

كنت أسأل بإلحاح:

-لماذا ينتحر العظماء؟

لماذا يموتون ميتة المفاجأة.. انتحار بالسم.. أعشاب سامة تنهى عظمة وقوة رجال ودهاء نساء غيّروا مسار الحياة.

كنت أعتقد أن ذاك الرجل الكورسيكى القصير لا يعرف قلبه الحب.. الأشد صلابة والأقوى دهاء أن يكون عاشقا.. مضطربا.. غيورا.. كئيبا.. يسئم طول الانتظار وهاجس جوزفين كابوسا يهدده..

عذاباته جعلته يحلم بمداعبتها، وهى المرأة التى كانت تعتز برؤيته يحبها مثلما يحب المجد..

أن يختار بين المرأة والمجد؟

أن يخير بين العظمة والملك والسلطة والجاه وامرأة اسمها جوزفين؟

وإما أن تتصف هى بالمثالية والخيال أو يتصف هو بالحذر والشك؟

وبين أن ينسى باستور.. رجل الجراثيم و الفيروسات ليلة عرسه وهو بين أنانبيب اختباراته أنه رجل لامرأة أو رجل الأنابيب والأبحاث!

-وهل وضعتنى "رجاء" لأختار بين الرجولة والأمومة؟

كنت أفتقد للطمأنينة والأبوة التى كانت تورطنى فى ليالى الفارغة.. أختبئ فى فراشى وأتلذذ بأزيز السرير وهو يقتل صمت المكان.. أتلذذ بصوتى يرد على صمتي.. أعود إلى دهاليز طفولتى الماضية.. أعيدها أمامى ليلة بليلة.. أعيد لعبة الشطرنج وكرة القدم والغميضة.. أعيد مغازلة البنات أمام الثانوية، وكيف نلعب لعبة الضحك والهمس والمواعيد الغرامية..

كنت أنتهز الفرصة.. فرصة الظلام حتى أكون راضيا عن نفسي، فاضطرابى ودقات قلبى والرجفة التى كانت تصيبنى كلما تذكرت أننى بعيد عن ذاتى تزيد من انفعالى وقشعريرة جسدي.

كنت أتغاضى عن العيوب وأمتنع عن التدخين لساعات طويلة.. عن تساؤلاتى وشكوكي.. عن مراهقتى التى انتحرت بداخلى وراحت تدور فى ساحة الاتهامات،ومن ثمة أجبرت الطمأنينة على الترقب!

كنت أحمل تأويلاتى واحتمالاتى وحتى حماقاتى إلى حقد شخصى يتحدث بداخلي، وبصوت منخفض مبعثه إحساس بالسعادة وابتسامة استهزاء تفاصيلها نوبة تأنيب ضمير!

كنت أعى أننى أصبت بنوع من العمى النفسى نتيجة لصدمتى التى امتدت فى كل الاتجاهات.. تُصارع غيبوبة اعترتنى منذ أن لَوَن الاصفرار وجهى وكاد يفقدنى السيطرة على كل تخميناتي.. أننى مريض..

كانت لحظة الترقب والانتظار تستمر وتنمو بداخلي.. ترفض تلك العلاقة التى ارتبطت بها، وأحيانا ترفض حالة الترقب التى كانت ملامحها متعبة ترسم خيوطها على محياي.

كان الماضى ينتفض ويلعن خوفي.. خوفى الذى يزبد من ارتباكى وضجرى وتوترى وحتى من تنبئي!

الرعب فجر درجة الجنون بداخلى والهيجان إلى أخطر احساس هدد وجودي، وهو الرغبة فى التخلص من وجودي؟

نزعة عدوانية ودوافع دنيئة اختفيت وراءها وهى رغبة الخلاص من مزاجى الذى حطم إرادتى وأصبحت الانفعالات مجرد انفعالات وقتية تثور ككذبة تزين دواخلي.. أننى مازلت لا أؤمن بالخداع وبالنزوات التى دمرت حياتي!

كانت إجاباتى تضايقني، تخون جرأتى وتقديري..

-لما حدث ؟

-وماذا سيحدث؟

-ولما يحدث ؟

إجاباتى هذه المرة تغلبت على قوة ضعفى واقتناعى بأن التنازل أكبر من الخسارة التى أتعبها جبنى وحزنى وغضبى وحتى استنكاري!

لم تعجبنى طريقة لباسى هذه المرة، وقبل أن أغادر البيت توجهت أكثر من مرة إلى خزانة الملابس.. أفرغتها بجنون وكأننى أبحث عن لباس لا أجده بداخلها..

لباس من الوهم صنعته بداخلى وبداخل الخزانة.. لباس يمكن أن يذكرنى بقيمتى وقوتى وعنفى وسخريتى منهم.

لباس زحزح قدرتى على امتلاك غضبي..

عاجز أنا أمام صبرى الذى بتر كل أوصالى المشحونة بتيار كهربائى قوته أشد من قوة تحملي!

كنت دائما أبحث عن ذلك العنف الذى سكننى منذ الطفولة.. سكننى بين طاولات المدرسة.. المخبأ بين أيدى المعلم..

المعلم الذى تفنن فى صنع وجعه على أجسامنا الصغيرة.. كان ينزع سراويلنا ويضربنا على مؤخرتنا ونحن نصرخ من شدة الألم وأحيانا نخجل من نظرة زملائنا فنكتم الصرخة بداخلنا حتى تحرقنا ألما.

ومرة تجمع أصابع اليد وتضرب على الرؤوس.. أصابع اليد كانت وحدها تعمل عمل السحر فى الأوصال.

ومرة يوضع القلم بين الأصابع ويضغط عليها بشدة، أو يلوى القلم فى حركة دائرية وهو ضاغط على الأصابع بقوة.. بقوة...

وحدها الأصابع شكّلت لغة الألم والتعب!

ووحدها الأصابع شكّلت لغة اللّذة والحنين!

كانت مرحلة التعليم الابتدائى مرحلة جحيم بالنسبة لطفل كره المدرسة.

مرحلة جحيم ..نقش العلم فى عقولنا كما نقشت العصا شكلها على أيدينا الصغيرة !!

وكاد المعلم أن يكون رسولا؟

تمر الأيام والسنون ويكبر جسمى وتكبر أيامى بساعاتها وأحلامها ومتاعبها..

مراهقة تميزت بالعنف والاندفاع والانفعال والإحباط ، والقهر..

مراهقة عواطفها جامحة تدفعنى إلى القنوط واليأس ومن ثمة إلى الانتحار.

كنت أشعر أننى لم أعد طفلا.. طفلا مخلصا فى ولائه للعائلة وللمدرسة وللزملاء.. مخلصا لذاته بل ثائرا ضد كل شيء..

مراهقة تعترف بالنضج!

مراهقة أرجعتنى إلى تلك الطفولة التى تسأل عن الله أين ولماذا وكيف، مراهقة اللعب بالأسئلة، ومراهقة حررت تفكيرى وأعادت إليّ التوازن وبعثت فى نفسى الطمأنينة وأدركت الإجابة عن أسئلتى بالبحث، فكانت إجاباتهم لا تقنعني.

كنت أحس بأن هناك سرا يحاولون إخفاءه عنى أولا يعرفون؟

وأحيانا يمتنعون عن الإجابة بحجة أننى مازلت صغيرا.

مراهقة أتعبتنى باضطرابى وانفعالي، مراهقة العناد والسلبية وعدم الاستقرار والبحث عن الحرية المكبوتة.

مراهقة تشعرنى بالخطيئة وبالذنب والخوف وعدم الثقة فى نفسى وفى الآخرين.

مراهقة متمردة تتحدى الأراء والأوضاع، ومراهقة تبحث عن الذات الأخرى التى أراها فى جذب الانتباه... انتباه الآخر.

مراهقة ترفض أن أكون رغبة أبي.. تحقيق حلمه الذى فشل هو فيه.. أبى الذى كان ضحية ظروفه، أو بالأحرى ظروفه التى كانت ضحيته؟

لأنه لم يقدر الأمور تقديرا جيداً.

مراهقة توقفنى أمام المرآة لساعات طويلة، أتحسس ملامح وجهى وأعاود تسريحة شعرى مرات ومرات وباتجاهات مختلفة.

مراهقة ترفض شكلي.. ترفض أنفى الخشن أو وجهى المستدير.. ترفض قصرى أو طولى أو حتى امتلاء جسمي.. فكنت أقلب الخزانة رأسا على عقب للبحث عن لباس يلائم شكلى لأننى مللت نفس الألبسة وربطات العنق التى تخنقني.. ربطات العنق التى تأخذ شكل وألوان الأفاعي.. و.. و..

واليوم ارتبطت أكثر..

ارتبطت بالأخبار، أكثر من ارتباطى بمكتب ستالين.. ارتبطت بوجه آخر أكثر ألما وتضحية.. ارتبطت بالصورة التى كانت تكشف دواخلي.. تحرّضنى ببطء على الصمت الذى أصبح هدية الأيام كل صباح..

يطرق باب غرفتى ويغادرنى عندما أنام.. ينزع كل تفاصيل يومياتى التى تسكننى دون استئذان..

مازلت أذكر تلك العيون الحوراء التى كانت تحسسنى أننى أسبح فى بياض بياضها وأغرق فى سوادها، لكأننى أسبح فى بياض البحر الأبيض المتوسط وأغرق فيبتلعنى محور مثلث برمودا.

وهى من حولى تمارس فنون القتال على جسدي!

تطارد شهواتى المكبوتة وتجتاح قلاع ذكرياتى المحصنة.. تجوب دهاليز طفولتى البعيدة فتدغدغ أحاسيس الصبا، وتمضى لتبعثر

خيوط المراهقة دون أن تبالى على طاولة العمر فى عز المشيب!

وأنا بين ذراعيها أبحر بقواربى القديمة فى بياض عينيها التى تطعننى فى أعماقي!

أدمنت...

مدمن أنا على الزجاجات الخضراء..

مدمن أنا على كؤوسى الممتلئة.. الملونة بثغورهن.

مدمن أنا على شفاههن الملونة..

مدمن أنا على أساطير الماضي.. أطوف حولها كطائر الأحلام يشتهى طوق الغرام و القبل و الأحلام..

مدمن أنا على نسائم البحر وحزم أمتعتى كل ليلة تحت رذاذ المطر.

مدمن أنا على صخب المدينة والليل والنجوم والكواكب والضوء..

مدمن أنا على أزيز سريرى وكؤوس الشاى الصحراوى الأخضر..

مدمن أنا على صمتى وكلامي.. .

مدمن أنا على الجوع والعطش والوجع.. .

مدمن أنا على مساءاتى المتعبة وهى تلتهم ذكرياتى وتنبش فى انتماءاتى بحثا عن خرائطى وعن قافلة أجدادي...

امـــرأة بلا لـون!

تتبعثر ذاكرتى كلما تخوننى الذكريات وهى تسترجع نفسها رغما عني.. تعود محملة بالصمت والمرارة.. تعود محملة بالخيبات والانكسارات.. تعود محملة بالفرح النادر والألعاب الخشبية..تعود لتبعثرنى على وسائدى الباردة وغرفتى الموحشة.

لتعود مرة أخرى الألوان فى صورة ابنة أختى "سحر" الطفلة الصغيرة وهى تصعد على الكرسى لتصل إلى المرآة وتفتح أدراج الخزانة.. تعثر على أقلام الكحل وأحمر الشفاه والمشط وبعض الخواتم الذهبية...

تنظر إلينا.. ثم تضحك..

ضحكاتها تقول أنها وجدت لعبتها المفضلة.. لعبة الألوان ثم ترسم على وجهها خطوطًا وبأحمر الشفاه تصبغ حواجبها وخدودها.. لا تعرف سوى أنها لوّنت وجهها كما تفعل أمها وتضحك.

تضع الخواتم فى أصابعها وتضحك وتمشط شعرها وتضحك.. كانت تضحك وهى تنظر إلينا..

ضحكاتها تقول إنها رسمت الألوان بطريقتها وشكلّتها كما يحلو لها وهى تضحك..

ضحكاتها تقول إننى أنثى ووجدت ما كنت أبحث عنه..

ضحكاتها وهى تنظر إلينا تقول:

- إننى امرأة أمام المرآة..

آه.. صغيرتى ما أجمل ضحكاتك ولعبك بالألوان أمام المرآة وأنت صغيرة؟

وتبعثرت ذاكرتى مرة أخرى لتقول لى أن أمى لم يكن لديها الألوان.. ولم ألعب بها كما الصغيرة اليوم... أمى كانت تعرف الحناء والكحل.. ليس لجمال عينيها بل لعلاجهم من الرمد..

أمى لم تعرف لعبة الألوان أمام المرآة.. لم تكن لديها مرآة.. لأن أمى كانت جميلة بلا ألوان أو مرآة..

جمال الجبل هو السر.. سرها فى تلك الخطوط الخضراء.. فى ذلك الوشم الذى يزخرف تقاسيم وجهها وأذرعها..

أمى كانت تصنع من اللون الأخضر جمالا خاصا بها ولغة تحكى بها دواخلها.. كانت تقول لى دائما بلغتها:

- الجمال هو سر.. سر الحروف.

وبعدها فهمت معنى سر الحروف.. أى تقاسيم وملامح الوجه.. زين الجبل!

آه أيتها المرآة!!

وآه أيتها الألوان التى نسيت فيك جنون رغبتى وجنون غيرتى وجنون هزائمى وانتصاراتي...

ونسيَّت أمى جنون أنوثتها؟

كنت أحترم صمتى الذى يخوننى مع كل لون وأمام كل لوحة تكشف هوامشى المثيرة وتفاصيل ذاكرتى وبقايا طفولة مبعثرة أتحاشى تذكرها!

ربما كانت تزعجنى ألوانى التى كانت ممتلئة بالشهوة والجنون وتوقظ بداخلى بقايا الشبهات.. فتشعرنى بالندم رغم كراهيتي.. تشعرنى بتهمة الاغتصاب وبالحماقات..

كانت ألوانى تمنحنى صفة الشرعية وتمنحنى صفة الاعتراف وصفة التميز، لأنه لم يبق من العمر إلاّ القليل!

كنت أمارس الحب بالألوان وشهية الاشتعال بالفرشاة فيستوقفنى مزجها أمام معركة تتسع لأكثر من لون وأكثر من بداية وأكثر من وشم أخضر تفننت أمى فى رسمه على جسدها وجسدهن!

يقربنى مزجها من وجوه أعيد تشكيلها أو جمع أشلائها بأحاسيس تحترف القتل العمدي!

القتل العمدى الذى سكن كل لوحاتى ولم تستطع ولا واحدة إحياءه من جديد...

صورة قبر أبي!

كان أبى يسكن خلف الألوان.. يمزج نفسه بنفسه.. يُدَلِلُنى من بين الألوان ويبتسم عند كل لون لا يعجبه، ويقهقه عندما تتعرى ألوانى عن رغبتي.. ويصمت إن بدّت ألوانى باهتة.. تقتل بداخلى رغبة التلوين والإثارة!

كنت أميّز رائحته ومرآته الصغيرة ترسم نفسها على لوحتى دون أن أحددها بفرشاتي.. لحظتها شعرت أن أبى قريب منى كلما اقتربت من لوحاتي..

لم يعد أبى يسكن القبر.. أصبح أبى يسكن لوحاتى ويسكننى فى الألوان ؟

كلما أحس بالضجر والملل والحزن أهرب إليه.. أجده ينتظرنى على طاولة الألوان.. يعبث بالألوان والأقلام والأوراق..

كان المَرْسَم لأبي!

غرفة المرسم فى العلِيَة.. تطل نوافذها من الجهة الشمالية على زرقة البحر ومن الجهة الجنوبية على أشجار الصفصاف والنخيل..

كانت صورة النوارس البيضاء وهى تحلق فى الفضاء تلعب لعبة الألوان.. تسرق سمكتها من قاع اليّم وتطير.. تعاود التحليق واللعبة نفسها.. مزج اللونين الأبيض مع الأزرق.. سماوي.. كنت لا أملك سوى الإعجاب!

فحاضرى امتداد لماض بعيد يحرضنى على معرفته..

يحَرِضُنى على أن أفرغ كل ألوانى فى الذاكرة المنسية.. أن أبحث فى الفينقيين عن لونى الآجورى وعن أشياء جميلة من أثارهم التى تسكن المتاحف.. من أوانى فخارية دفنت فى أعماق الأرض، من نقود مطبوع عليها صور الملوك.. قطع تحمل صورة جانبية لرأس امرأة على رأسها تاج وأمامها رمز النصر، وأخرى لرجل واقف على قاعدة صخرية ومتوج بتاج له ثلاث أسنة وقد كتب عليه ايكوسيم.. اسمى أنا.. جزيرة النوارس..

كانت الأعياد وحدها تضفى على الأيام قدسية الزمان والمكان.. قدسية تشعرنى بالعظمة والكبرياء والتباهي.. كل يوم وساعة تحكى بطولة شعب وحكاية أم ودمعة رضيع..

كنت أسميها أعياد الألوان.. الأبيض والأخضر والأحمر، ولأول مرة

تخوننى الألوان.. لأننى لا أريد أن أمزج هذه الألوان الثلاثة.. أريدها طبيعية وحرة..

أريد ألاّ يتسلل لها مزاجى وتعبى وهمى وألمي.. أريدها هكذا.. ذاكرة ؟

لتعود ألوانى مرة أخرى فى شكل صور أطفال أبرياء ودموع نساء وصيحات رجال..

كانت تلك الصور تؤثث لروح أخرى.. تفزعها الألوان المميتة بطريقة أخرى..

بطريقة أكثر ما يقال عنها أنها بشعة.. لعبت لعبتها الألوان على أجساد بريئة.. لعبت لعبتها فى غزة ونابلس وبنت جبيل وبعلبك ومارون الراس وصور وقانا والعراق و.. و.. و..

على أجساد بيضاء اغتسلت باللون الأحمر، وبعد فترة لون أحمر داكن، وبعد فترة لون أحمر يميل إلى السواد، وبعد فترة لون أسود.. أسود، وارتسم الموت بلونه الأصفر ساعة الرحيل!!

اليوم فضحتنى الألوان.. فضحت عجزى أننى امرأة بلا لون.. امرأة لا تمتلك فى جعبتها غير التنهد والحسرة والألم.

ألوانى استوطنت عجزى وعدم قدرتى على الرسم، فلون الدخان قد زين سماء لبنان وفلسطين والعراق وكحلت النساء به عيونهن فى ذهول ودهشة الفجيعة!

استفاقت المدن على جنون الألوان وهى تغازل الأرواح والأفق بوجع الأيام المتعاقبة.. معلنة بداية ماض بعيد، لتنقلب الموازين وترتعش

الذاكرة على عويل نساء وصراخ أطفال وقهر رجال..

ليبقى اللون الأحمر القانى يختزل الرغبات المكبوتة ويعترف أنه سيد الجنون..

لون يعترف أنه تعب من تلوين بياض المدينة وزرقة البحر وطهر البراءة.

لون يعترف أنه حمل فوق طاقة التحمل كل الألوان البشعة.. المتوهجة.. لون بركان من نار!!

لون يقول لا.. يقول:

نحن شعب يحب الحياة!

نحن شعب يريد أن يحيا!

شعب يريد أن يعيش!

ولون درويشى يقول بلون الشعر:

أيها المارون بين الكلمات العابرة

منكم السيف ومنا دمنا

منكم الفولاذ والنار ومنا لحمنا

أعترف أنه لو كان بيدى لمنحته فرصة الحياة وملأت سماءه بطيور النوارس الهاربة من دخان القنابل المدوية..

أعمار قصّرت تحت لحظة الجنون.. لحظة الهستيرية والمكابرة.. أضحت الأعمار لا تساوى ذرة تراب..

وإذا بى كنت أحيا اللحظة.. اللحظة التى كانت تفصلنى عن الزمن والمكان.. لحظة لا تعترف بالشهوة و لا تبارك لحظة

تستدرجنى إلى الاعتراف..

إننى ألوِّن صدقى بالدهشة فتحَولنى من حماقة الصمت إلى حماقة الصدفة التى جمعتنى به أمام مبنى الجامعة.

كان عُمَر آخر ينتظرني.. عُمَر يعنينى ويؤرخ لتفاصيل حياتى القادمة!

عمر لفتنى الانتباه.. أننى أضيِّع حياتى فى صمت العلِيَة.. فى المرسم.. عند أبى .

اليوم أريد أن أخرج أبى من صمته إلى أحلامى التى سجنتها بين الألوان وعند نافذة العلية.

أن أتركها تحلق مع النوارس البيضاء،تأكل السمك وتلعب لعبتها آلاف المرات.. أقنعت نفسى اليوم أننى امرأة.. ولدت اللحظة.

لم أكن وقتها أشعر برغبة فى الحديث مع " ثريا" جارتي.. باب بيتها قبالة بابنا وهى تتحدث عن مغامراتها العاطفية، التى كانت تبدو لى حماقة و عبثا صبيانيا.

فثريا قادرة أن تصنع من حاضرها أضرحة تبكى عند شواهدها!

ضحكت لحججى رغم اقتناعها وأدهشتنى مراوغاتها.. كانت تسقط عنها آخر اعتراف أربكها بانبهار وبمتعة، وبلذة تستلطفها بعذوبة وتشعرها بوجودها.. أحسست أن بداخلها خراب تحاول أن تلملمه..

كنت أحس بنبرة حزن تسكنها.. تعبر عنها باللاخجل من أى شيء.. أعادتنى كلماتها إلى ساعة لمحتها فى شارع العربى بن مهيدى

أحد رموز الثورة الجزائرية الكبرى والذى نفذت فيه يد المستعمر الفرنسى الإعدام... لمحتها رفقة أحدهم..

وقفت لحظتها أصحح شكوكي، لكنها كانت هي.. لست أدرى لماذا أصبحت أتقرب منها الآن أكثر من ذى قبل.. شيء ما يشدنى نحوها.. كأننى أريد معرفة خصوصياتها.. كأننى أريدها أن تخبرنى عن ذاك الرجل الذى كان يقف معها.

أن تقول لي:

-هو أحد الأقرباء.. لا أكثر ولا أقل..

هكذا دون مقدمات ودون طرح لأسئلة تحيرني!

ولكن كلما أتذكر نبرة الحزن التى تسكنها وتحاول إخفاءها بكثير من الفرح تشل تفكيرى بل وتجعلنى عاجزة عن قول شيء سوى الاستماع إليها!

-ربما هى محقة فى اختيارها..

-ربما هى تبحث عن الحنان.. ربما.. ربما..

وفى يوما ما قالت لى وبكل بساطة:

-أريد المال والحياة الكريمة.. أريد الزواج قبل فوات العمر، و لا يهم إن كان العريس فى عمر أبي؟

ولكن كنت على حافة الانفعال والصراخ فى وجهها لما تفعلين ذلك..

-إنه فى عمر..؟

-وأنت مازلت فى عمر الزهور؟!

كانت ثريا تستوقفنى كل صباح وأنا أخط أوراقي.. أكتشف فيها وهما آخر من الحياة وشخصية أخرى تشعر بالندم والمرارة..

أكتشف فى أوراقى كراهيتى وغيرتى فى آن واحد.. واكتشف أحاسيسى التى لطالما تواطأت معها على كبتها!!

"ثريا" ترغمنى بحكاياتها على أن لا أبتر قصائد الحب بداخلي، ولا أطلق عليها نار الاتهامات ولا أحرجها بنقاوتى وطهرى يوما.

هى بذلك كانت تفجر بداخلى دهشة أسقطتها رغما عني.

هى بذلك تحاول أن أعيد ترتيبات فوضاى المبعثرة بداخلي.

هى بذلك تحطم جسورا قد بنيتها منذ آلاف السنين، أن أجتاز آلاف الأحداث..بين أزمنة للحرب وأخرى للسلام أعلنتها أو...

أن أتصالح مع ذاتى وأرتمى فى حضن الوطن ليحضننى بكبرياء!

هى بذلك تضعنى أمام خيارات يصعب الاختيار فيها بين مرور العمر دون محطات وبين الظروف التى أوقعتنا فى سوء الاختيار.. بين فرحة بعيدة المنال وأمومة تسكننا بزينة الحياة..

حينها أدركت الخراب الذى يحتوينى وأنا صامتة عنه وبخيبة الهزيمة رحت أشفى ولَعِى بالرقص على أنقاض فكرة لا أريدها أن تسكننى فتشتعل براكينى الخامدة.

صمِت وقد تواطأ صمتى مع جنونها وكأننى أعتذر لها بوجه آخر غير وجهى .

هذه المرة رسمّتنى الألوان بطريقة أخرى.. رسمتنى وأخذتنى إلى

قاعة الحفلات.. إلى لغة الرقص بالألوان وزينة الملابس بالألوان..

اختلطت عليّ الألوان من أصفر إلى أحمر إلى أخضر.. أجوري.. أسود.. أرجواني.. أبيض..وقتها لم أتعمد مزجها.. تركتها تلعب لعبتها.. تركتها على حالها فوق أجساد تسعد باللحظة.. ووقتها تذكرت الأغنية.. أغنية الرقص..

فتشوا فى قلوبكم..
أنتم تحترقون..
يمكنكم أن تطيروا..
ليتحرر الجميع..
لنتحرر..
لنخلع حذاء المناسبات..
انسوا أحزانكم..
ليتحرر الجميع..
لنخلع حذاء المناسبات..
تحرروا.. تحرروا..
اخلعوا حذاء المناسبات..
وتحررت النسوة..

تحررن من سقوطهن المستمر.. من سقوطهن الدائم.. تحررت الألوان وتسريحات الشعر.. أشكال وألوان.. تحررت المساحيق والأغانى الصاخبة.. تحررت الأجساد من نسخة أصلية إلى شبه نسخة أخرى.. تحوّلت من الصمت الدائم إلى لغة الحلم والحب.. مفضوحة الرموز

والإيقاع.. تعترف بلا خجل أنها تحررت من كبتها.. من صمتها.. من الأوتاد البالية.. من الشعارات المزيفة واللوائح المسطرة.. تحرّرت من صور المجلات والصور العارية ومن الأجساد العارية ومن الخطيئة التى علقت بها..

وتساءلت وكنت منهن:

-هل تحررن من عبودية الجدران الأربعة؟

-وهل تحررن من عقدة الآخر؟

-رأيتهن يبحثن عن أنفسهن.. عن الألوان التى تقول أننى أنثى بكل الألوان!

ورأيتهن هكذا... تسكنهن متاهة الأربعة جدران، ومتاهة لا يعرفن الخلاص منها وهى الآخر الذى يسكنهن.. اغتراب..

كانت مواويلى الملونة والمتوهجة تصدح فى فراغ الذاكرة، وكنت أحاول رتق الجراح الملتهبة ونسيت غيرتى ورغباتي...

كانت تتعبنى تلك الألوان الدافئة التى يحاصرنى بها الأحمر والأصفر والبرتقالي..كنت أراها فى غضب النار وعادة لتوصيل الكره أو لإظهار الابتهاج.

ومرة فى الألوان الباردة.. الأخضر والأزرق والبنفسجى التى أهيم بها فى الطبيعة.. الماء والخضرة لتبعث فى نفسى الهدوء والطمأنينة..

لقد عاشرت الألوان بروحي، فكنت أختار وأقف وقفات طويلة معها.. لون اللباس ولون الشعر ولون الحقيبة ولون الحذاء ولون السيارة ولون الأثاث والأفرشة والأرضية ولون الجدران و.. و..

كان تحليل الألوان وقفة أخرى مع العمر.. فى سن الخامسة والثلاثين تخبو الألوان وترتسم الخطوط التى كنت أشكّلها على لوحاتي، فكنت أبحث عن مواطن الجمال فى لون العينين والرموش والبشرة والابتسامة والشعر والأظافر.. و.. و..

إن كنت المرأة الصيفية أو الشتوية أو الخريفية أو الربيعية وفى المقارنة بين الألوان الباردة والدافئة.. فى اللون الذى يخفى الظلال والدوائر ويعطى الحيوية والجاذبية.

كنت أحاول التقرب من شخصيتى فى الألوان ومن الفصل الذى أنتمى إليه، وما يناسبنى من عطور وملابس ومجوهرات.. إن كنت أميل إلى الإثارة بسبب عطرى المفعم بالحيوية أو بمجوهراتى الفضية والماسية والذهبية.

إن كنت امرأة صيفية بألوانى الكلاسيكية التى تضفى عليّ الهدوء والمثالية والاتزان واللباقة والأناقة.. وعطرى برائحة الزهور.

أو المرأة الخريفية.. الطبيعية.. بمجوهرات الذهب وعطر الفاكهة..

أو المرأة الربيعية بإحساس مرهف وألوان مشعة.. حيوية.. جذابة.

كانت تجذبنى تلك الموجات الكهرومغناطيسية التى تحرك الدواخل وتؤجج المشاعر وكيفية التحايل بها على الزمن الذى يلعب دوره على جسدي..

وببساطة اكتشفت أننى لم أجب عن أسئلة كثيرة حيّرتني، غير عودتى إلى الألوان وإعادة مزجها ورسم لوحة الرقص والتحرر والإيقاع والجسد مرة أخرى.. هناك فى المرسم.. عند أبي.. فى العلية المطلة

على البحر والنوارس البيضاء..

كنت أتتبع لونى الآجورى منذ أن زرعنى رحم فنيقى من أصل كنعانى فى القرن الثالث قبل الميلاد..

لقد كان أجدادى يعشقون الألوان، وعشقهم اللون الآجوري.. زاد من بياضى وجمالي.

اللون الملكى الذى اشتهرت به قصور روما التى زينت

البحر وأسعدت النوارس.. فكنت البنت المدللة بلون الملوك فأسمونى "ايكوسيم"..

الأرض التى هام بجمالها هرقل ورفاقه.. فركنوا إلى الراحة تحت ظلال أشجارها ونسائم بحرها الأزرق وزقزقات عصافيرها وتغاريد طيورها..

يحدث فى تلك الليلة أننى مارست جنونى وحدى بين ألواني.. مارستُ وحدتى فى العلِّية، أتأمل المدينة البيضاء وأستحضر شيوخها العلماء ودراويشها الأتقياء وأبطالها الشهداء الذين تطل رؤوسهم من البحر تُشهدنى على جذورهم وانتمائهم وبركاتهم.. عبد الرحمن الثعالبي.. أحمد الجزائري.. محمد القلعي.. أبى البركات الباروني.. و.. و

وأحمد زبانة وعلى لابوانت وجميلة بوحيرد وجميلة بوباشا وحسيبة بن بوعلى ومليكة قايد...

شدّنى بياضها وزرقة اليّم والسماء والشجر والطير والبنايات والهواء والمطر..و.. و... وإلى تذكر قول أحد الشعراء:

بلد أعارته الحمامة طوقها ×× وكساه حلة ريشه الطاووس

وتخيّلت نفسى أسكن قصراً من القصور والدور الضخمة كقصر الداى مصطفى باشا أو القصر الذى بناه الرايس حميدو أو قصر الباردو أو قصر الداى بالقصبة.. القصبة التى فجرت على لابوانت وألهمت محمد ديب فى رواياته "دار السبيطار" و"الحريق" و"الدار الكبيرة" روايات تحكى بطولة شعب وهمجية ووحشية المستعمر فى التعذيب...

كنت مرتبطة بذاكرتى وذاكرة قصر عزيزة أو دار عزيزة باي.. المحبوبة عند زوجها والتى ارتبط اسمها بذاك الحب الجارف الذى قتلها بضربة سيف حاد.. قتلتها غيرتُه الجنونية بها..حتى حُبِه لها لم يشفع لها عن قتلها بيده..

هى أسوار سكنتها الحكايات المثيرة.. أسوار خبأت بين زواياها وأقواسها المنحية تحفا من الإعجاب.. ذوق وجمال وراحة أبدية، حتى خيِّل إليّ أننى فى إحدى عجائب ألف ليلة وليلة وأن شهرزاد سرقت حكاياتها الليلية من تلك الزوايا والنوافذ والأقواس واللون الأزرق والأضواء التى تنساب دون استئذان إلى تلك الغرف المتراصة والمتداخلة ببعضها البعض..

من الزرابى والمرايا والممرات والزخرفة التى تسكن كل جدار وكل تحفة باللون البنفسجى والأزرق والأحمر و.. و..

بنايات ميزَتها الطراز القديم.. فسيفساء وأعمدة من المرمر ونافورات الماء تزين الحدائق الغناء، والتمتع بجمال الطبيعة، ولذة الحياة والغرف الواسعة والزرابى المبثوثة والساعات الكبيرة والمرايا

التى كنت أرى نفسى فيها امرأة تاريخها طويل وعريض.. امرأة بقامات شامخة.. امرأة مني.. امرأة اسمها ايكوزيوم..

امرأة البياض واللون الآجوري..

امرأة ورجل لا يخجلان من الاعتراف أمام اللون والشكل إذا ما تبدد اللون وتحطمت كل الأشكال...

انتهـــــى

صدر للمؤلفة :

- نساء يعتنقن الإسلام (دراسة) نشر دار الحضارة ١٩٩٦.
- قراءات سيكولوجية فى روايات وقصص عربية (الطبعة الأولى عن دار الحضارة ٢٠٠٤ والطبعة الثانية عن دار الحبر٢٠٠٧).
- الموؤودة تسأل.. فمن يجيب؟ (مجموعة قصصية) دار الحضارة٢٠٠٣.
- مخالب (مجموعة قصصية) نشر جمعية المرأة فى اتصال ٢٠٠٤.
- السوط والصدى (رواية) نشر وزارة الثقافة ٢٠٠٦.
- اعترافات امرأة (رواية) ٢٠٠٧ (طبعة خاصة فى إطار تظاهرة الجزائر عاصمة الثقافة العربية، نشر دار الحبر)
- سقوط فارس الأحلام (رواية) ٢٠٠٩ دار نورشاد (الجزائر، ط١)، الطبعة الثانية عن منشورات نيبور العراق ٢٠١٥.
- حكايات شعبية جزائرية رفقة الأديب رابح خدوسي: الشيخ ذياب ـ لونجا ـ بقرة اليتامى ـ بنت السلطان ـ الأميرة السجينة ـ الفرسان السبعة ـ الأمير و الفراشة ،مترجمة إلى اللغة الفرنسية. وصدرت أيضا بعنوان بقرة اليتامى وقصص أخرى عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق. و بفرنسا تحت عنوان Contes Algériens عن دار النشر Edilivre 2015.
- أبو راس الناصرى (للفتيان).